مُنيل المآرب للبشر

شرح الكبريت الأحمر

ويليه

مُنيل العبد مُناه فيمن نظلمهم الله

ويليه

سهل المرتقى في الحث على التقى

ويليه

المقاصد النورانية في ذكر من ذاته وصفاته متعالية



كلها تأليف
سيدي محمد مصطفى ماء العينين ابن مامين
المتوفى سنة ١٣٢٨هـ

تحقيق وتعليق
أحمد فريد المزيدي

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(نظم الكبريت الأحمر)

الحمدُ للهِ كفاء الواجبِ ... عَلَى الذي أَعْطَى مِن المطَالِب

مِنْ نِعْمَةِ الإِسْلاَمِ والإِيمَانِ ... ونِعْمَةِ الكَرَمِ والإِحْسَان

ونِعْمَةِ السَّمْعِ ونِعْمَةِ البَصَرِ ... ونِعْمَةِ الفُؤادِ في هذي الصور

صلَّى وسَلم عَلَى خَيْرِ البشَر ... وخير مَنْ خفي وخير مَنْ ظهر

وبَعْد ذَا فَذَا نظيمٌ يَصِف ... بعض شهود أهل ذكر يعرف

سميته الكبريت أعني الأحمرا ... لكن ذا ينظره من نظرا

لعل من نظر فيه ينتفع ... فيختشع فيتضع فيرتفع

فيه تبرأت من الحول ومن ... جميع قوة إلى الله قمن

مديم ذكر ربنا ينل شهود ... مضجعًا وقائمًا وفى القعود

يقع في شهود فعل أو لا ... من ربنا عن فعله تحولا

يقول لا فاعل إلا الله ... والفعل فعله ومن والاه

وفى شهود الوصف بعد ذا يقع ... لربنا وعن سواه مرتفع

يقول لا حي ولا سميعًا ... سواه لا بصير لا رفيعًا

بعد ذلك شهود الذات ... يقع فيه عن جميع ذات

يقول لا موجود إلا ذاته ... وفعله لذاته صفاته

وربما سبق ذا التَّجلي ... عليه والُّشهود في التدلي

للسابقين وكثيرًا يقعُ ... ذاك بجذب أحدية فعوا

وهو أفضل إذا ما وقعا ... لأنه سبق فيما ارتفعا

وقد تدلَّى بعد ذاك يَرتقي ... مع التدني بمعارف سقى

وقد يفاجأ بتنزيه شَهد ... له مع الذِّكر وثم يستفد

عدم شبيه الذات والوصف وما　　لربنا من كل فعلٍ قد سما
ويستفيد عدم الحلول　　والفصل والوصل لدى العقول
وشاهدًا من بعد ذا التفريدا　　يرى به الفعل له سديدا
يشهد كونًا بارزًا من واحدٍ　　مبتدئًا وراجعًا لواحد
يرى به المسموع مبصورًا يرى　　بذلك المبصور مسموعًا جرى
يذوق للأوصاف ذوقًا أحلى　　من عسلٍ ومن شموس أجلى
ليس له مشهد ضر نفع　　إلا لربّ واضع للشرع
ويشهد الإجلال في الأكوان　　مع وبعد ذاك في الأزمان
كل صغيرٍ عنده كبير　　لأنه فعله الكبير
وما يُقال فيه ذلك كبير　　صغر عنده لإجلال الكبير
ولا له خوف من العذاب　　بعكس خوفه من الحجاب
من بعد ذا تلاطمت بحور　　غيب وأنوار له تنور
إن خاضها بسفن الشريعة　　نجا وإلا فيرى قطيعة
وإن يشأ يلتقط الدر يرى　　بها من اللآلئ درًّا بهرًا
ويأخذ الياقوت لا بثمنٍ　　ولا يُباع أبدًا بثمنٍ
وإن عن الأنوار غض بصرًا　　تأدبًا فاز وغيبًا بصرا
إلا فمن رفع للشمسِ البصر　　بصره خطف أو قل نظر
وبعد ذا لا ينبغي التعبير　　عن الشهود فادرِ يا خبير
لأنه بغير ذوق ما دري　　والذوق فيه يغني عن معبر
وذاكر شهد نفسه انتخب　　من عرف النفس فقد عرف رب
إياك أن تطلب للمغيب　　في غير نفسك فعنه تذهب
بل اجعلن نظرًا في النفس　　مجتنبًا مطهرًا للرجس
حتى تكون كالزجاجة وما　　مثل الزجاجة ترى به السما

هناك تشـــهد الســـما والعرشـــا	والأرضـــين كلـــها والفرشـــا
وذاك لا يكـــون حـــتى يمتـــزج	باللحم والدم وفى الـــنفس تهـــج
ويكمل الشهود عند الحركـــات	واللحظات كلـــها والســـكنات
صلّى وسلم مـــدى التخاطـــب	على النبي حمدًا كفـــاء الواجـــب

انتهت بحمد الله، ويتلوها شرحها:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله معطي مجامع المسامع، الذي بفضله يطرب الرائي والسامع، وبنور توفيقه تبصر عين البصيرة، وتُستمد من مدده الأمداد الغزيرة، فتظهر بها المعاني الممتلئة إطرابًا، فتوسع بذلك الرائي والسامع إعجابًا لما يريان به من بحورٍ متلاطمةٍ أغرابًا، كل بحرٍ له دررٌ كالكبريت الأحمر، بل هي أحسن لآخذيها من البشر.

والصلاة والسلام على أسنى الكونين محمد المخصوص بقرب قاب قوسين، وعلى آله وصحبه دوام الملوين، وعلى تابعيهم بإحسانٍ في الدارين.

وبعــد...

فيقول عُبيد ربه ماء العينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين، غفر الله لهم ولأحبتهم وللمسلمين آمين: أنه قد صدر مني في بعض الأزمنة الماضية نظيم في وصف بعض شهود أهل الله الراضية، فطلب مني بعض الإخوان شرحه لتظهر له معانيه، ويدري ما يقول لمن يسأله عن معانيه ويعانيه، فاعتذرت له أولاً وتركت عني ما هو قاصده حتى قيل لي: هل لهذا أحد موجود يشاهده؟ فقلت: نعم، وسبحان الله من يمنع ربنا المعبود من أن يعطي هذا لأحدٍ من خلقه موجود، ثم قلت:

مِـنْ أينَ يمنع ربنا المعبود   أحد عطاء يعطه موجودا
أَلَـهُ تقيَّد دهرنا أم جَاءَه   عجزٌ فنزه ربنا المعبودا

وقلت أيضًا:

يَا عَجَبًا لمن يروم العجب   فيمن يرى أو قد يصوغ الذَّهب
هَلاَ تعجَّبَ الفَتى نَاظِرًا   في جَهْلِهِ شمس الضُّحى ذَا عَجَبٍ

وهذا أمرٌ ليس يُقال فيه إلا كما قال المقرئ النبيه:

أضواؤُه طبق المُنى وهَوَاؤُه   يَشْتَاقه الولهانُ في الأسحارِ

والطبعُ معتــدلٌ فَقُــلْ مَــا شِــئْته   في الظِّــــلِّ والأزهــــارِ والأنـــــوارِ

وسميت الشرح بمنيل المآرب على الحمد لله كفاء الواجب، وإن شئت قلت:

منيل المآرب للبشر على نظمي المُسمَّى بالكبريت الأحمر، وأرجو الله العون عليه من ابتداءه إلى انتهاءه، وجعله خالصًا لوجهه الكريم، وقبوله في إبلاغه وإنهاءه، إنه ولي العون ومالك الكون.

قلت بعد ما بسملت، غفر الله لي ما قلت وما فعلت:

الحمــــدُ للهِ كفـــاء الواجـــب   على الـــذي أعطـــى مـــن المطالـــب

مِـــنْ نِعْمَـــةِ الإسْـــلاَمِ والإيمـــانِ   ونعمـــــــةِ الكـــــــرَمِ والإحســـــــانِ

ونعمةِ السَّـــمعِ ونعمـــةِ البصـــرِ   ونعمـــةِ الفـــؤادِ في هـــذي الصـــور

اشتملت هذه الأبيات على نعمٍ حق لنا أن نحمد الله عليها حمدًا لا ينقطع؛ لأننا لولا هي لنا بأعمارنا لا ننتفع، وهى سبعة، أعني أني أحمد الله حمدًا (**كفـــاء الواجـــب**): أي مكافئًا للواجب لـــه علينا من شكره (**الذي أعطانا من المطالب**): أي الذي يطلب (**من نعمة الإسلام**): أي الانقياد لطاعته (**والإيمان**): أي التصديق بما جاء من عنده، ونعمـــة الكرم: أي التقوى.

(**والإحسان**): أي شهود أنه يرانا، أو كأننا نراه في حالة عبادتنا لـــه، وعلى نعمـــة السمع الذي أعطانا نسمع به الأصوات، ونعمة البصر الذي أعطانا نبصر بـــه الـــذوات، ونعمة الفؤاد: أي القلب الذي أعطانا نعرف به الأشياء على ما هي عليه: أي أعطانا هذه النعم في هذه الصور التي لولا هذه النعم لكانت كالجماد أو كالأنعام، بل هـــي أضـــل سبيلاً، ولو تتبعت ما تحمله هذه النعم لاحتجت إلى مجلدات، لكن في كتابنـــا مبصـــرًا متشوفًا من الكلام عليها ما يشفي ويكفي، وهذا الحمد مقتبس من الحمد المشهور الذي هو الحمد لله حمدًا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده.

وقد رُوي في الحديث الصحيح:

((**أن من قاله ثلاث مرات صباحًا لا تكتب عليه الحفظة ذنبًا إلى المساء، ومن قاله مساء ثلاث مرات لا تكتبه عليه أيضًا إلى الصباح**))،

ثم قلت:

صلّى وسلم على خيرِ البشـــر وخير مَـــنْ خفـــي ومَـــنْ ظهـــر

أعني أني أصلي وأسلم: أي أثني بزيادة الصلاة: أي الرحمة والسلام، الأمان (**على خير البشر**): أي بني آدم، ثم لما قلت هذا خفت احتمال ما يعتقده بعض المعتزلة أن الـــنبي ﷺ أفضليته إنما هي على بني آدم.

فقلت أيضًا: (**وخير من خفي**) من المخلوقات، (**وخير من ظهر منها**)، و(من) قاصد بها جميع المخلوقات، وإن تركت على بابها من أنها لمن يعقل فغيره من باب أحرى.

وقد ورد في الحديث الصحيح: «**أن مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحدةً صَـــلَّى الله عليـــه بهـــا عشر**[1]»، واللفظان بمعنى الخبر والمراد الطلب، ثم قلت:

وبعـــد ذَا فـــذا نظـــيمٌ يصـــفُ بعضَ شهود أهـــل ذكـــر يُعـــرف

أعني بعد هذا الذي ذُكر من الحمد والصلاة على النبي ﷺ، (**فذا**): أي فهذا (**نُظيم**): تصغير (نظم)؛ تقريبًا للطالبين، وكذلك الشرح أيضًا (شُريح) تصغير (شـــرح)، يصـــف كلاهما للسامعين، (**بعض شهود أهل ذكر**) الله الذي (**يُعرف**) عند الأمة جميعًا، ووصف الشيء نعته بما يصح أن يُعرف به، والمراد بالشهود المشاهدة، وهي حضور الحق تعالى من غير بقاء تهمة: أي شبهة لما شاهده من الكمال؛ لتحقق يقينه بوجوده.

وتُطلق المشاهدة على رؤية الأشياء بأدلة التوحيد، وعلى رؤية الحق في الأشـــياء: أي فصاحب مقامها يطالع الحق في الخلق: أي يرى الخلق قائمًا بالحق بواسطة فنائـــه فعـــلاً ووصفًا في فعل الحق، وفى وصفه بل وفى فنائه ذاتًا في ذاتٍ، وذلك هو حق الـــيقين، ثم قلت:

سَمَّيْتَهُ الكبريـــت أعـــني الأحمـــرا لكـــــن ذا ينظـــــره مَـــــنْ نظـــــرا

أعني أني سميت هذا النظم: أي جعلت اسمه: أي علمه الكبريت الأحمر الذي يُقال أنه يُذكر ولا يُرى، ولذا استدركت فقلت: لكن ذا الكبريت ينظره من نظره: أي من أراد أن

---

(1) رواه مسلم (306/1).

ينظره فهو مخالفٌ لذلك الكبريت الذي يُذكر ولا يُرى، مع أنه قيل أنه يُرى كثيرًا عند الأغنياء، ويقينًا أنه وُجد في تركة سيِّدنا عثمان بن عفان ﷺ.

وفى التذكرة في الكلام على الكبريت وهو أحمر هو أرفعها، يوجد في معادن الذهب والياقوت ونحوهما، وقيل بالصناعة يُؤخذ، وأصفر يُعرف بالأصابع، والمصطكاوي لحسن تصفيته، وقطع كبار يُسمَّى الفجرة بيض، غليظة الطبع، وأزرق كدر هو حرافته، وكلها تُستخرج من الأرض بالطبخ، إلى أن قال: إنه يبرئ الجذام، ويقاوم السموم كلها شربًا وطلاءً، ويقلع الآثار، والحكة، والجرب، وبياض الظفر، والبهق، وتقشر الجلد، والسعفة، وداء الحيَّة، والثعلب طلاء بالنطرون، وصمغ البكم، ويسقط الأجنة سريعًا، ثم قلت:

لعلَ مَنْ نَظَرَ فيه ينتفعْ فيختشعْ فيتضعْ فيرتفعْ

أعني أني نظمت هذا النظيم **(لعل من نظر فيه)**: أي راجيًا من الله للذي نظر فيه أنه **(ينتفع)** به، فبسبب ذلك **(يختشع)**: أي يخضع ويتذلل لله، فبسبب ذلك **(يتضع)**: أي يتواضع لله تعالى، فبسبب ذلك **(يرتفع)**: أي يرفع الله قدره؛ لأن من تواضع رفعه الله، وهذا هو فائدة العلم، والأفعال مجزومة للضرورة، ثم قلت:

فِيْهِ تبرأتُ مِنْ الحولِ ومِنْ جميع قوة إلى اللهِ قمن

أعني أني متبرأ في هذا النظم **(من الحول)**: أي القدرة لي ولغيري، **(ومن جميع قوة)** لي ولغيري: أي الله تبارك وتعالى: أي ادّعائهما إلى الله تعالى، وهو **(قمن)**: أي حقيق بأن يتبرأ إليه من الحول والقوة، وهذا إشارة إلى أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحول يُطلق على الإرادة والتحول وغير ذلك، والمراد هنا الإرادة: أي لا إرادة لي، ولا قوة لي على هذا النظم ولا غيره إلا بالله العلي العظيم.

وفي الحديث الصحيح: «**أنَّ لاَ حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ العَلِي العظيم: كنزٌ من كنوز الجنة** [1]»، ثم شرعت أبين بعض الشهود المراد توصيفه بقولي غفر الله لي قولي وعملي:

مديمُ ذكر ربنا يَنَل شهود مضجعًا وقائمًا وفى القعود

(1) رواه البخاري (2346/5)، ومسلم (2076/4)، والترمذي (580/5)، وابن ماجه (1256/2)، وابن حبان في الصحيح (194/2)، والطبراني في الكبير (420/19)، وابن أبي شيبة في المصنف (194/7).

أعني أن (**مديم**): أي مستديم (**ذكر ربنا**)، بمعنى أن من أدام ذكر ربنا حال كونه (**مضطجعًا وقائمًا**) وقاعدًا، وهو المراد بقولي: (**وفي القعود**)، ينل: أي ينال بسبب ذلك شهود ربنا أيضًا حال كونه مضطجعًا وقائمًا وفي القعود، والمراد بهذا الدوام على الذكر في كل حالةٍ كما قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران:191]، ثم شرعت في ترتيب الشهود، ترقيًا من الأدنى إلى الأعلى فقلت:

يقع في شهود فعل أو لا ... من ربنا عن فعله تحولا

يقول لا فاعل إلاّ الله ... والفعل فعله ومن والاه

هذا هو المقام الأول من مقامات الشهود، وذلك أن المرء يكون أولاً ذاكرًا بلسانه من غير مشاهدةٍ حتى يتفضل الله عليه بأنه يقع في شهود الفعل: أي الأفعال كلها واقعة من الله، فالأولية بحسب الشهود لا بحسب الذكر، فينسب الأفعال كلها لله، ويتحول عن نسبتها لـه ولغيره، فيصير يقول بقلبه: لا فاعل إلا الله، والفعل كله ومن والاه: أي وإلى فعله فإنه فعل الله، فيكون مشاهدًا للفعل، ومن فعله بأنهما فعل الله تعالى، قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات:96]: أي خلقكم وخلق عملكم، ثم يترقى إلى مقام أعلى من هذا، وهو شهود الصفات، وهو الذي عبرت عنه بشهود الوصف بقولي غفر الله لي قولي وعملي:

وفي شهود الوصف بعد ذا يقع ... لربنا وعن سِواه مرتفع

يقول لا حي ولا سميعًا ... سِوَاه لا بصير لا رفيعًا

أعني أنه بعد شهود الفعل لله يقع في شهود الوصف الجميل الحقيقي لربنا تعالى، قولي: (**وعن سواه مرتفع**) أعني أن الوصف الحقيقي مرتفع عن سواه من المخلوقين، بمعنى أنه منـزهٌ عن أن يُوصف به غير ربنا تعالى، ثم بيَّنت ذلك بأن صاحبه (**يقول**) بقلبه: (**لا حي**) على الحقيقة ولا سميع ولا بصير (**سواه**): أي غيره، ولا رفيع غيره بمعنى أن هذه الصفات ونحوها لا يتَّصف بها على الحقيقة إلا ربنا، وأما وصف غيره بها فهو مجازٌ لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿**هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [غافر:65]، وهذا يفيد الحصر: أي أنه لا حي ولا مريد ولا قادر إلا هو، فقوله: هو الحي: أي له الحياة الحقيقية الأزليَّة الأبديَّة، وذلك يستلزم أنه له جميع الصفات الجميلة التي في الأسماء كلها، لا يستحقها إلا هو، ثم

إنه يترقّى من هذا إلى شهود الذات المعبّر عنه عندهم بالفناء عن الفناء، وإليـــه أشـــرت بقولي:

وبعد ذلـــك شـــهود الـــذّات يقـــع فيـــه عـــن جميـــع ذات

يقـــول لا موجـــود إلا ذاتـــه وفعـــله لـــذاتـــه صفـــاتـــه

أعني أنه يقع له (**بعد ذلك الشهود**) الذي هو شهود الصفات شهود الذات، حـــال كونه (**يقع فيه عن**) شهود (**جميع ذات**) سواء كانت ذاته أو ذات غيره، فيصير (**يقول**) بقلبه: (**لا موجود إلا ذات**) الله، وإنما (**فعله**): أي أفعاله صفات (**لذاته**)، وصف بها ذاته ليُعرف.

فلما استبانَ الصبح أدرجَ ضوءه بأنوارِهِ أنوار ضـــوء الكواكـــب

ولله المثل الأعلى.

❋ ❋ ❋

تنبيهان

الأول: اعلم أني أشرت لشهود الفعل بـــ(ذا) الذي هو إشارة القرب؛ لأن مقامه كثير من يقع فيه لقربه، وأشرت بـــ(ذلك) الذي هو إشارة للبعد، إشارة إلى بعد درجة شهود الصفات؛ لقلة أهله، وأحرى ما بعده.

الثاني: اعلم أن هذه المقامات الثلاثة إشارة إلى كون الأنفس ثلاثة هـــي: اللوّامـــة، والملهمة، والمطمئنة، وأما على القول بأنها سبعة فهذا إنما يقـــع في الملهمـــة والمطمئنـــة والراضية، وإشارة أيضًا إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، فعلم اليقين هو ما أثبته الدليل والخبر، وعين اليقين هو ما يُشاهد بالعين والنظر، وحق اليقين هو مقام لا يبقى ولا يذر.

وقال بعضهم: علم اليقين هو قبول ما ظهر من الحق وما غاب للحق، والوقوف على ما قام بالحق، وعين اليقين هو الفناء بالاستدلال عن الاستدلال، وعن الخبر بالعيان، وفرق الشهود حجاب العلم، وحق اليقين هو إسفار صبح الكشف ثم الخلاص من كلفة اليقين ثم الفناء في حق اليقين.

وقيل: علم اليقين عقد ذهني بلا اضطراب مطابق للواقع، وعين اليقين مشاهدة بــلا حجابٍ، وحق اليقين اتحاد بعد اقتراب، واليقين عند جماعة توالي العلم بالمعلوم حــتى لا يكاد يغفل عنه، فهو أخص من العلم: أي لأنه علمٌ خاصٌّ بالتوالي، وهو أخص من مطلق العلم.

واليقين والإيمان والتصديق ألفاظٌ مختلفةٌ، وهي في المعنى واحد، فيقين العبد هو تصديقه وهو إيمانه، لكنه قوي بما شاهده من الله بالعمل والعلم.

وقال بعضهم: اليقين اعتقاد جازم ثابت مستقر بسببٍ يوجبه مطابق للواقع، فإذا أُضيف إلى النفس والعقل من هذه الحيثية فعلم يقين، أو إلى الروح من طريــق رفــع الحجاب فعين اليقين، أو إلى السر المبين بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:4]، فحق اليقين تدبر، واخرجْ عن قيد التقليد تفهم، والله أعلم[1].

ثم إن هذا الذي سبق من الترتيب على الترقي هو أغلب سير أهل الله، وقد يــنعكس الأمر نادرًا في بعضهم، فيسبق في هذا الأخير الذي هو شهود الذات، ويتدلَّى بعد ذلــك لشهود الصفات، ثم يتدلَّى منه لشهود الأفعال، إلا أن هذا التدلي ترق معنى، وإلى هــذا أشرت بقولي غفر الله لي كل عملي وقولي:

وربمــا سَــبق ذَا التجلــي عليــه والشــهود في التــدلي

للسَــابقين وكــثيرًا يقــع ذَاكَ بجــذب أحديــة فعــوا

اعلم أن **(رب)** للتقليل وللتكثير، وهنا للتقليل وكم للتكثير، وتُقرأ **(رب)** بالتخفيف والتشديد وهما لغتان، وإنما زيدت **(ما)** مع **(رب)** ليليها الفعل تقول: رُبَّ رجل جاءني،

---

(1) قال الجنيد: من لم يصل علمه باليقين ويقينه بالخوف وخوفه بالعمل وعمله بالإخلاص وإخلاصه بالمجاهدة فهو من الهالكين.

وقال: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب.

وقال: حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك، وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عِيانٍ، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق، كما أخبر الصدِّيق حين قال لما قال له رسول الله ﷺ: ماذا أبقيت لعيالك؟ قال: الله ورسوله. وانظر: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص148).

وربما جاءني زيد، أعني أنه ربما: أي قليلاً ما سبق هذا (**التجلي**) القريب الذي هو شهود الذات على المرء، ويكون الشهود بعد ذلك (**في التدلي للسابقين**)، وهما شهود الصفات وشهود الأفعال، وهذا يقع كثيرًا في جذب الأحدية، بل عند بعضهم أنه لا يقع إلا فيه، (**فعوا ذلك**): أي احفظوه، وجذب الأحدية أحد أنواع الجذب وهي كثيرة جدًّا، وسنذكر طرفًا منها إن شاء الله بعد البيتين الآتيين وهو أفضل، ولذلك قلت:

وهُو أفضل إذَا مَا وقَعَا لأنَّه سبق فِيْمَا ارْتَفَعَا

وقَدْ تَدَلَّى بعد ذَلِكَ يرتقي مَعَ التَّدَلِّي بمعارف سُقى

أعني أن من تفضَّل الله عليه بجذب الأحدية، وتدلَّى منه لشهود الصفات ثم لشهود الأفعال، أفضل سيرًا من السير الذي قبله، ثم عللت ذلك بقولي: (**لأنه**) وذلك لأنه (**سبق**) في الذي (**ارتفع**) من المقامات والحال، أنه (**قد تدلَّى بعد ذلك يرتقي مع التدلي**)حال كونه (**سُقى بمعارف**) الله مع ذلك التدلِّي.

وسأضرب لك مثالاً يبيِّن لك أفضلية هذا عن ذلك، وذلك أن ذلك الأخير كأنه شخصٌ كان في بيته خامل الذكر، لا علم لأحدٍ به، ولا له بأحدٍ علم، و لم يعلم بشيءٍ، وإذا أصحاب السلطان أتوه من عنده وأخذوه وأطلعوه عليه، فكلمه وباسطه حتى عرفه بنفسه، فلما عرفه بنفسه صار يعرفه بوزرائه، ثم بمن تحتهم، ثم بمن تحت أولئك، حتى عرفه جميع الرعية، وهو مع ذلك معه على ما يحب.

وأما الثاني: فإنه كشخص جاء بنفسه إلى مدينة السلطان، فصار يطلب معرفة هذا وهذا من أداني الرعية، ثم منهم إلى من فوقهم، ثم من أولئك إلى من هم أعلى إلى الوزراء، ثم إلى السلطان، فشتان ما بينهما، ثم إنهما قد يلتقيان هذا في ترقيه وذلك في تدليه حتى يكملا: أي يكمل ذلك في ترقيه إلى أن يصل إلى مطلوبه، ويكمل هذا في تدليه إلى أن يصل إلى كماله، ثم إن كملا صار صاحب الجذب أفضل؛ لأنه قطع كل عقبة مع شهوده للعظمة.

واعلم أن الأحد هو الذي لم يتولد وجوده من شيءٍ، و لم يتولد من وجوده شيء، والمراد بقولهم من وجوده: أي من ذاته، فهو الذي وصف نفسه تعالى بقوله: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾ [الإخلاص:3]، فالأحدية عبارة عن مجلي الذات، ليس للأسماء ولا للصفات ولا لشيء من مؤثراتها فيه ظهور، فهي اسمٌ لصرافة الذات المجردة عن الاعتبارات الحقية

والخلقية، وليس لتجلي الأحدية في الأكوان مظهر أتم منـــك، إذا اســـتغرقت في ذاتـــك ونسيت اعتباراتك، وأخذت بك فيك عن ظواهرك، وهذه الأحدية في لسان العموم هي عين الكثرة المتنوعة، فهي في المثل كمن ينظر من بُعد إلى جدار، فقد بنى ذلك الجدار من طينٍ وآجرٍ وجصٍ وخشبٍ، ولكنه لا يرى شيئًا من ذلك، ولا يرى إلا جـــدارًا فقـــط، فكانت أحدية هذا الجدار مجموع ذلك الطين، والآجر والجص والخشب لا على أنه اسمٌ لهذه الأشياء، بل على أنه اسمٌ لتلك الهيئة المخصوصة الجدارية، كما أنك مثلاً في مشهدك واستغراقك في آنيتك التي أنت بها أنت لا تشاهد إلا هويتك، ولا يظهر لك في شـــهودك منك في هذا المشهد شيء من حقائقك المنسوبة إليك، على أنك مجموع تلك الحقـــائق، فتلك أحديتك، فتكون كأنك كنت أنت في أنت من غير أن يُنسب إليـــك شـــيءٌ ممـــا تستحقه من الأوصاف الحقية، أو هو لك من النعوت الخلقية، فهذه الحالة من الإنسان أتم مظهرًا للأحدية في الأكون فافهم.

فجذب الأحدية صاحبه لا ينظر إلا أن الله أحد، وساكن عن نظر الأوصـــاف؛ لأن هذه الصفة التي هو بها ينعدم بها تجلي كل وصفٍ، ثم إنه إن ثبت في هذه الحالـــة فهـــو مجذوبٌ أبترٌ، إلا أنه مقامه مطهر.

وفيه الخلاف عندهم: هل هو أفضل أم صاحب السلوك غير الكامـــل؟ وأمـــا إن رُد للوصف وشاهد الأفعال فهو أفضل بلا خلافٍ من صاحب السلوك إن كمل.

ومن الجذب نوع آخر يكون لصاحب السلوك، وذاك كجذبه مثلاً من اللوامـــة إلى الملهمة سريعًا، ومنها للمطمئنة أيضًا سريعًا، وهكذا يترقّى من مقامٍ إلى مقامٍ فوقه سريعًا، لكنه في ساعة جذبه لا بدَّ أن تكون له خفة عن ظاهر الشرع، حتى يُرى كأن به جنونًا، والفرق بينه وبين صاحب الجنون لا يظهر إلا عند الإفاقة، فصاحب الجذب يرجع للحق لا محالة، وصاحب الجنون يرجع إلى ما كان عليه من فسقٍ أو غيره.

ومن الجذب نوع آخر يكون من خسائس الأمارة إلى علم الغيب، ومن دلائلـــه أن يقتفي صاحبه آثار علوم من خشية الله، ومن حذره مما يحصده اللسان من كلام الغرور، فيصير صاحبه هاربًا للصمت، إلا ما يكون خيرًا ظاهرًا من ذكرٍ ونحوه، ويهرب أيضًا من سموم النظر في المحرمات إلى غض البصر، ويهرب أيضًا لحصن فرجه عمًّا لا يحل له بعد أن كان سواء عنده ما فعل، ويهرب أيضًا من فضول المطعم إلى ما يحمد من الجوع، ويترك

الشبهة تركًا كليًّا، وأحرى الحرام بل الأغلب في صاحب هذا الحال ألا يأخذ من أحـــدٍ شيئًا، إلا إذا كان بيعًا أو إجارةً أو صدقةً أو هبةً، والحاصل أنه لا يأخذ شيئًا إلا إذا كان جائزًا شرعًا، بل ولو كان السؤال الجائز فإنه لا يفعله إلا إذا وزنه بميزان الـــورع، فـــإن التبس عليه تركه ويحبس نفسه عنه وإلا فعله، ويُقال أن الورع غربال الأشياء، والعقـــل ميزانها.

ومن الجذب نوعٌ آخرٌ يكون من طريق العوام إلى طريق الخواص، ومن دلائله الهروب من الأمن إلى الخوف من الله تعالى، ومن الغفلة إلى الانتباه، ومن الذنب إلى التوبة، ومـــن الجزع إلى الصبر، ومن التسويف إلى المجاهدة والتخويف، ومن الجهل إلى العلـــم، ومـــن الغضب إلى الحلم، ومن الطمع إلى القناعة، ومن الحرص إلى شدة الاعتناء بما يحصل، ومن الدنيا إلى السكون عن ذلك، ومن الشبهات إلى الورع، ومن الاستكثار إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن حظ النفس إلى حظ القلب، وهذا الوصف مختصٌّ بمـــن جذبتـــه العناية الأزليَّة، وصاحبه يرى به الكفاية الأبديَّة، وذلك لأن من سبقت له العناية لم تضره الجناية، ومن لم تسبق له العناية لم تنفعه الدراية[1]، كما قيل:

إذا المرءُ لم يُخلق سَعِيْدًا من الأزلِ فَخَـــابَ مربيـــه وخَـــابَ المؤمـــلُ

فموسى الذي ربـــّاه جبريل كافرٌ وموسى الذي ربَّاه فرعـــون مرســـلُ

(1) قال سيدي عبد الله الشرقاوي: والمجاذيب جمع مجذوب: وهو من صادفته جذبةٌ إلهيةٌ، وهي كما قال بعضهم: تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية، مهيئًا له كل ما يحتاج إليه في طي المنازل إلى الحق بلا كلفةٍ وسعيٍ انتهى.

فكل جذبةٍ من جذبات الحق توازي عمل الثقلين، ولها علاماتٌ قلبيةٌ يعاينها السالك بطريق الوجدان، ويتأيد ذلك بأن يرى نفسه طائرًا أو في السماء أو غير ذلك.

وأهل الجذب على أقسامٍ كما أن أهل السلوك كذلك:

فمنهم مجذوبٌ سالكٌ، ومنهم مجذوبٌ دام له الجذب، ومنهم مجذوبٌ وقف بعد سيره. والأول: هو الذي يصلح للإرشاد؛ لمعاينته منازل السائرين من الرجال في حال سلوكه بخلاف غيره، وبعضهم يُكشف له في لمحةٍ واحدةٍ عن ميادين السلوك فيعرف حقائقها، وهذا عبدٌ اعتنى الله به ليقيمه داعيًا عباده إليه. وانظر: شرح الحكم الكردية (ص95) بتحقيقنا.

يعني بموسى الذي ربَّاه جبريل السامري، ولأن اسمه موسى بن ظفر، وذلك أنه قيل أن أمه ولدته في السنة التي كان فرعون يقتل فيها البنين، فوضعته في كهفٍ حذرًا عليه من القتل، فبعث الله إليه جبريل ليربيه، لما قضى الله على يديه من الفتنة، وأهل هذا النوع من الجذب هم الذين يصلحون للتربية وأصنافهم أربعة:

الصنف الأول: الأولياء، ووصفهم ظهر بأنه توالي طاعة من غير فترةٍ، وقد تولَّى الله تعالى أمرهم، ولم يكلهم إلى أنفسهم، ولا إلى أسبابهم، ولا تدبيرهم، وقد حجبهم الله من هواجس النفوس ورعونات الطبع.

واحذرْ من أن تظن أن الولي معصومٌ من الذنوب؛ لأن الذنوب لا ينفك أحدٌ عنها ولو كان من أهل العناية، والذنوب لا تقدح في الولاية؛ لأن الولي غير معصومٍ، بل هو محفوظٌ، وحفظه جائز لا واجب، بخلاف العصمة في حق الأنبياء؛ فإنها واجبةٌ شرعًا وعقلاً.

***

تنبيه

الذنوب على أقسام ذنوب العامة وهى المعاصي، وذنوب الخاصة وهى غفلة القلوب عن المحبوب، ولذا سأل جماعة بعض العارفين عن كيفية سجود السهو؟ فقال: هو عندكم سجدتان وتسليمتان، وعندنا ضرب العنق للغفلة عن الله، وذنوب خاصة الخاصة وهى خطور ما سوى الله في قلوبهم، كما قال سيدي عمر بن الفارض ﷺ وأرضاه:

ولو خطرت لي في سِوَاك إرادةٌ   على خاطري سهوًا قضيت بردتي

فدوام الحضور من غير تخلل غفلة لا يكون إلا للأفراد، كالأنبياء وبعض الكُمَّل من الأولياء دون غيرهم، وينبغي سؤال المغفرة ولو من معصومٍ؛ إظهارًا للعبودية، وقيامًا بحق الربوبية، وتعليمًا للأمة.

قال عمر ﷺ: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «**رب اغفر لي وتُبْ عليَّ؛ إنك أنت التواب الرحيم**[1]».

(1) رواه أبو داود (475/1)، والترمذي (494/5)، والنسائي (119/6).

وأيضًا فهو ﷺ دائم الترقِّي في المقامات، فكلما ترقَّى من مقامٍ إلى غـــيره عـــدّ الأول نقصًا، فيستغفر الله منه، قاله في الفيوضات الإحسانية.

الصنف الثاني: الأبدال، وهم قومٌ بذلوا نفوسهم وأموالهم في طريق الله، وبدلوا مـــا يشين الهمم بوصف الصفا، ويلازمون أبدًا حق الوفا، ويتعرضون لنفحات ربهم، ويبدلون أبدًا من غيرهم، بمعنى أنهم إن مات أحدٌ فمن فوقهم جعل في موضعه واحد منـــهم، وإن مات منهم أحدٌ جعل في موضعه أحد ممن دونهم(1).

الصنف الثالث: الروحانيون، وهم قومٌ لا يطالعون الأسباب، بل يـــرون الله النـــافع والضار في السماء وفى التراب، لا يرون واسطة من دونه، بل يرون كل شيءٍ عندهم من أمره.

الصنف الرابع: الصديقون، وهم قومٌ مراقبون ربهم في كل وقـــتٍ، وصـــادقون في مراقبتهم، وكلهم مراقب على القدر الذي احتمل عقله.

---

(1) قال سيدي عبد الله الشرقاوي: (والأبدال): جمع بدل، وهو من له قدرةٌ على أن يقيم غيره بدلاً عنه إذا أراد مفارقة محله مثلا.

قال في ((الفتوحات)) في الباب الثالث والسبعين ما معناه: اعلم أنه لما انتقل رسول الله ﷺ بعد أن حرر الدين الذي لا يبدل، وكانت الأرض لا تخلو من رسول حي بجسمه يكون قطب العالم الإنساني، أبقي بعده من الرسل ثلاثة متفقًا عليهم، وهم إدريس وإلياس وعيسى، وواحد مختلف فيه عند غيرنا لا عندنا وهو الخضر عليهم السلام، فهؤلاء الأربعة باقون بأجسادهم في الدنيا، واحد منهم القطب واثنان منهم الإمامان وأربعتهم أوتاد، فبالواحد: يحفظ الله الإيمان، وبالثاني: يحفظ الله الولاية، وبالثالث: يحفظ الله النبوة، وبالرابع: يحفظ الله الرسالة، وبالمجموع: يحفظ الله الدين الحنيفي، ولكل واحدٍ منهم في كل زمان شخص على قلبه نائب عنه، فيتطاول كل واحد من الأمة لنيل هذه المقامات، فإذا حصلها عرف أنه نائب، فنائب القطب يعرف أنه نائب القطب، ونائب الإمام يعرف أنه نائب الإمام، وكذا نائب الوتد، فمن كرامة رسول الله ﷺ على ربه أن جعل من أمته وأتباعه رسلاً وارثين مقام الرسالة إلى يوم القيامة .

واعلم أن رجال الله في هذه الطريق هم المسمون بعالم الأنفاس، فهذا اسم يعم جميعهم، وهم على طبقات كثيرة وأحوال مختلفة: فمنهم من تجمع له الطبقات كلها، ومنهم من يحصل لما شاء الله منها، وما من أهل طبقة إلا ولهم اسم خاص، فمنهم من يحصره عدد في كل زمان، ومنهم من لا عدد له.

وأما ما دون الأولياء من الناس فهم نوعان: نوعٌ يُقال له أبناء الآخرة، والنوع الثاني يُقال لهم العميان، ويتضح الفرق بين وصفهم في ثلاث: في النطق والسمع والنظر.

وأما العميان فإنهم يسرحون ألسنتهم في كل قولٍ سيء، كتمزيق العرض في كل مجلسٍ، وسرحوا نظرهم في كل ما حسن مما حُرِّم، وسرحوا أسماعهم في استماع كل منهيٍّ عنه، وإذا سمعوا وعظًا سمعوه بآذانهم دون قلوبهم مع وجود الملل منه، ويلتذون بما لم يسمعوا، ويملُّون مما سمعوا، وله لم يعو.

وأما أبناء الآخرة فإنهم قد سجنوا ألسنتهم عن مهالك الألسن، وبسطوها في العلم السالم من حب الجاه والشرف، وجعلوا نظرهم في الملكوت، غاضين لأبصارهم عن الحرام والرغبة فيما يفوت، وسمعوا الوعظ بقلوبهم وآذانهم، وحفظوه وثبتوا له بأبدانهم.

وأما نظر أهل الخصوص فهو الاستغراق في نظر الذي هو الخلاق، غابوا به عن الملكوت، وورثوا درجة في الغيب فيها مكثوا، وذلك أن الشمس إذا أشرقت في الأفق غابت كل النجوم.

واعلم أن العبد تارة يغيب عن حاله، وهو مع ذلك مهيبٌ، فإن كان ما غاب فيه بحر الجلال والعظمة والكمال لا بدَّ أن يظهر ذلك عليه في الفعال والمقال، ثم يرد لا محالة، ولو سما قدره حتى يشاهد طبائع البشرية، ويظهر ذلك عليه في البرية، وذلك لا يناقض أوصافه العليَّة؛ لأن آخر انتهاء الأولياء هو ابتداء الأنبياء، والأنبياء لا تقدح فيهم أوصاف البشرية كما هو مقررٌ في شرط الإيمان بهم.

واعلم أيضًا أنه ما من مقامٍ يترقَّى إليه العبد إلا وصار يطلب التوبة مما قبله، كما تقدَّمت الإشارة إليه في استغفاره ﷺ.

وحقيقة التوبة الرجوع عن الذنب، وأركانها ثلاثة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم على ألا يعود، وهى ثلاثة أقسام: بدء ووسط ونهاية، فمبدأها يُسمَّى: توبة، ووسطها يُسمَّى: إنابة، ونهايتها يُسمَّى: أوبة، فالتوبة للخائف من العوام، وهى صفة المؤمنين.

قال تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور:31]، والإنابة للطائع، وهى صفة الأولياء المقرَّبين، قال تعالى: ﴿**وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**﴾ [ق:33]، والأوبة لمراعي الأمر الإلهي، قال تعالى: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص30]، وتوبة العوام

من الذنوب، وتوبة الخواص من غفلة القلوب، وتوبة خواص الخواص من كل شيءٍ سوى المحبوب، وهذا معنى قولهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ إذ من عبد الله استحقاقًا لربوبيته، وقيامًا بعبوديته، لا رغبةً في جنته، ولا خوفًا من ناره، كانت عنده رؤية الثواب والعقاب نقصًا، قال ﷺ: «**لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، أو كالأجير إن لم يُعطَ لم يعمل**[1]».

والتوبة أول مقامات الطريق ولا نهاية لها، كما تقدَّم بالتحقيق، ثم لتعلم أن هذا الذي تقدَّم هو أغلب سير أهل الله، ولهم أنواع أُخر[2].

ومن أشرفها وأبرزها وألزمها وأظرفها ما أشرت إليه بقولي غفر الله كل قولي وعملي:

وقَدْ يُفَاجِئ بتنزيه شهد ... له مَعَ الذكر وثَم يستفد

عدم شبيه الذات والوصف وما ... لربنا من كل فعلٍ قد سَمَا

ويستفيد عدم الحلول ... والفصل والوصل لدى العقول

فجأه وفاجأه: أتاه بغتةً وعاجله، أعني أن العامل قد يفاجئ: أي يعاجل بشهود تنزيه لله تعالى، يشاهد له مع الذكر: أي في خلال ذكره، و(ثَم) بفتح الثاء المثلثة: أي هنا لك يستفيد عدم: أي فقدان شبيه: أي مشابه الذات: أي ذات الله تعالى ووصفه، والذي له من كل فعلٍ قد سما: أي ارتفع بمعنى أنه يحصل له بعين اليقين، وحقه أن الله

(1) لم أقف عليه.

(2) قال سيدنا الجنيد: دخلت يومًا على سريٍّ السقطيِّ، فرأيت عليه هَمًّا، فقلت: أيها الشيخ أرى عليك هَمًّا، فقال: الساعة دق عليَّ داقٌّ الباب، فقلت: ادخل، فدخل عليَّ شابٌّ في حدود الإرادة، فسألني عن معنى التوبة؟ فأخبرته، وسألني عن شرط التوبة؟ فأنبأته، فقال: هذا معنى التوبة، وهذا شرطها، فما حقيقتها؟ فقلت: حقيقة التوبة عندكم ألا تنسى ما من أجله كانت التوبة. فقال: ليس هو كذلك عندنا، فقلت له: فما حقيقة التوبة عندكم؟ فقال: حقيقة التوبة ألا تذكر ما من أجله كانت التوبة، وأنا أفكر في كلامه.

قال الجنيد: فقلت: ما أحسن ما قال؟ قال لي: يا جنيد، وما معنى هذا الكلام؟ فقال الجنيد: يا أستاذ، إذا كنت معك في حال الجفاء ونقلتني من حال الجفاء إلى حال الصفاء فذكري للجفاء في حال الصفاء غفلةٌ. وانظر: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص167).

تبارك وتعالى مُنــزهٌ عن شبيهٍ في الذات والأفعال والصفات، ويستفيد أيضًا شهود عدم حلول الله: أي نزوله في الأكوان، وعدم الفصل: أي انفصاله عنها، وعدم الوصل: أي اتصاله معها، قولي: لدى العقول: أي عند العقول جميعًا: أي يُنــزهه عمَّا يكون عند العقول جميعًا من مشابهة فعل أو وصف أو ذات، وينــزهه أيضًا عمَّا يكون عند العقول من حلولٍ وانفصالٍ واتصالٍ، وفي المعنى قلت:

ألا نــزه لربِّكَ بالمقالِ — عَنْ الأشْبَاهِ في كَلِّ الفعَالِ

وعَنْ شبه الذَّوات أو اتِّصاف — وعَنْ شبه الكلام أو المقالِ

وحاشى مِنْ حلولٍ واتِّصالٍ — وحَاشى مِنْ فلولٍ وانفصالِ

وأما كلام القوم في هذا المعنى فهو كثيرٌ، ولو تتبعته لاحتجت إلى كثير أثر، ولكني اقتبس مقبسًا من أضوائهم؛ ليستدل به الرائي على أنوارهم، ثم قلت:

وشَاهد مِنْ بعد ذَا التَّفريدَا — يَرَى بِهِ الفعل له سديدَا

يشهد كونًا بَارِزًا من واحدٍ — مبتدئًا وراجعًا لواحِد

يرى به المسموع مبصورًا يرى — بذلك المبصور مسموعًا جرى

يذوق للأوصافِ ذوقًا أحْلَى — مِنْ عَسَلٍ ومِنْ شموس أجلى

ليس له مشهد ضر نفع — إلا لرب واضع للشرع

أعني أن المرء من بعد الذي تقدَّم من شهود التنــزيه (**شاهد للتفريد**): أي كون الله فردًا في جميع التصاريف، فبسبب ذلك (**يرى به**): أي شهود التفريد، (**الفعل**): أي الفعل الذي يُنسب (**له**) تعالى (**سديدًا**): أي موافقًا للسداد: أي الصواب.

لأنه تعالى لا يفعل شيئًا عبثًا، والأفعال كلها منه، قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:44]. وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

وقوله:

يشهد كوناً بارزًا من واحد — مبتدئًا وراجعًا لواحد

وبسببه (**يشهد**) أيضًا (**كونًا**): أي الكون كله (**بارزًا**): أي ظاهرًا من ربٍّ واحدٍ حال كونه: أي الكون (**مبتدئًا**): أي ابتداؤه، (**وراجعًا**): أي رجوعه لله (**الواحد**) الذي لا شريك له، وبسببه أيضًا: أي لشهود التفريد:

يرىبه المسموع مبصورًا يرى بذلك المبصور مسموعًا جري

(**يرى المسموع مبصورًا**): أي يشاهد كل شيءٍ يسمع كأنه مبصورًا؛ لشدة إدراكه للمسموعات، (**ويرى بذلك**): أي بسبب ذلك الشهود (**المبصور مسموعًا**): أي كأنه للطافته عنده كالصوت الذي يسمع، وهذا مما لا يدركه إلا من شاهده عين يقين وحقه، ويصير بسببه أيضًا.

يذوق للأوصاف ذوقًا أحلى من عسل ومن شموس أجلي

(**يذوق للأوصاف**) الربَّانية (**ذوقًا أحلى**): أي ألذ (**من عسلٍ**) وغيره من الملذوذات، ويراها (**أجلى**): أي أظهر من شموس.

ليسَ له مشهدُ ضُر نفع إلا رب واضع للشرع

وصاحب هذا المقام (**ليس له مشهد**): أي شهود (**نفع**) ولا (ضر) (**إلا**) من الله، الذي هو **واضع للشرع**: أي الشريعة.

وفي هذا نكتة بديعة هي أنه إن تلبَّس بالشرع ليس تلبسه به من جهة خوف من عذابٍ، ولا نفع من ثوابٍ، لكنه رأى أن الله وضع هذا، وهو لا يضع شيئًا إلا لحكمةٍ بالغةٍ، ويفعله لذلك.

هذا حاصل معنى الأبيات، وليس يمكن الإتيان بما فوق هذا من العبارة؛ لأن هذا مقامٌ من مقام الأحبَّة الذين سقاهم الله من شرابها بألطف العبارة والإشارة، ولا تظن أن الرؤية هنا بالبصر، بل إنما هي بالبصيرة ذات الإنارة، وقد أشرت إلى هذا المعنى بقولي في قصيدتي التي مطلعها: «**أصبحت لا بدَّ لي أن أنفث الصدرا**» بأبياتٍ هي:

يسقي القلوب رحيقًا منه معرفة يشفي سرائرهم تكون متبصرا

يسقيهم من كؤوسِ الحبِّ أشربة تخامر العقل بالعرفان تختمرا

إذا تجلَّى على القلوبِ خامرها ود ينسي وداد الخمر ما اختمرا

أحلى وأطيب من مسكٍ ومن عســـلٍ ينسي الغواني على الفتيانِ لـــو حضـــرا
أجلى وأظهر من شمسِ الضُّحى وبمـــا جلى بلا حجبٍ مـــن عينـــك القمـــرا

ثم قلت:

ويشـــهدُ الإجـــلال في الأكـــوانِ مـــع وبعـــد ذاكَ في الأزمـــانِ
كـــل صـــغيرٍ عنـــده كـــبير لأنَّـــه فَعلـــه الكـــبير
ومـــا يُقـــالُ فيـــهِ ذَلـــك كـــبير صـــغر عِنـــده بـــإجلالِ الكـــبير

أعني أنه (**يشهد الإجلال**): أي العظمة لله (**في الأكوان**)، جمع كون، مع ذلك الذي تقدَّم وهو شهود التفريد، والحال أنه بعده، في الأزمان: جمع زمن، بقولي ذلك متنـــازع فيه، (**مع وبعد**) على سبيل الإضافة، وبيّنت ذلك بأن أعطيته لمع، وأعطيتها ضميره لبعد، وذلك لأن الشهود الذي هو شهود الإجلال: أي العظمة، لا يقع إلاَّ بعد شهود التفريد: أي الفردانية، ومع ذلك هو أيضًا مشاهد فيه، وبيَّنت ذلك بقولي: كل صغير، أعني أن كل صغير من الأكوان عنده كبير، وذلك لأنه مشاهدٌ أنه فعله الكبير، والكبير لا يفعل إلا ما له شأنٌ كبيرٌ؛ لأن أفعال العقلاء مصونة عن العبث، وأحرى من له الحكمة البالغة، وذلك لأنك لا ترى جوهر فرد من الكون كله إلا وصفات الله كلها متجلية فيه، مـــن قـــدرةٍ وإرادةٍ وعلمٍ وحياةٍ وسمعٍ وبصرٍ وخبرةٍ وغير ذلك، ومن كان هذا وصفه فحقيق أن يكون كبيرًا معنًى ولو صغُر في عين الناظر حسًّا.

قولي: وما يُقال فيه، أعني أن الذي يُقال فيه كبير من الأكوان يصغر عنـــده أيضًـــا؛ لأجل إجلاله: أي تعظيمه للكبير تعالى عن أن يُعظم معه شيء؛ لأنه مشاهد أن الكـــون كله أمر واحد بيد حكيم عليم، وأيضًا: ﴿**مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِـــدَةٍ**﴾ [لقمان:28]، بل كأنهم كلهم كأصغر الحصى، كما أنه قدرهم وعدهم أحصى.

قال شيخنا ﷺ وأرضاه في نظمه «**زهر الحسان على توحيد المنَّان**»:

وكلهم بـــين يديـــه كالحصـــى وقـــل لقـــدرهم وعـــدهم حصـــى

وذلك أن ما يتناهى إذا نظر مع ما لا يتناهى لا يكون بمنـــزلة حصاة مع الســـموات والأرضين؛ لأن هذا نسبة متناه إلى متناه، وذلك نسبة متناه إلى ما ليس بمتناه، وصـــاحب هذا المقام لا يخاف من العذاب بعكس خوفه من الحجاب، ولذلك قلت:

ولا لــه خَوفٌ مــن العــذابِ بعَكــسِ خَوفــهِ مــن الحِجَــابِ

أعني أن صاحب هذا المقام: أي المشاهد لعظمة الله تعالى ليس (**لــه خــوف مــن العذاب**) في الدارين؛ لأجل تعظيمه لله تعالى وتحقيره لسواه، (**بعكس خوفه من الحجاب**)، فإنه خائفٌ منه ولا لــه قدرة عليه؛ لأن الحجاب هو أشد ما يرى الكافر من العــذاب، قال تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين:15].

قال مالك بن أنس: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلَّى لأوليائه حتى رأوه.

وقال الشافعي: في هذه الآية دلالة على أن أولياء الله تعالى يرون الله جلَّ جلاله، وعنه كما حجب قومًا بالسخط دلَّ على أن قومًا يرونه بالرضا، ومن وصل إلى هذا المقام وجد اللذة حتى في الآلام والأسقام.

واعلم أن الشهود والمشهد بمعنى المشاهدة التي تحصل لأهل الله تعالى بسبب تجليه على قلوبهم، فيشهدون ذاته أو صفاته أو أفعاله على حسب استعداد المتجلى علــيهم، وهــذا الشهود إنما هو في القلب فقط دون البصر، فرؤية الباري تعالى بالبصر ممتنعة، وبــالروح والقلب جائزة، ولذلك قال عمر ﷺ: «**رأى قلبي ربي**»، وقال علي ﷺ: «**لا أعبد ربًّا لم أره**»: أي بروحي انتهى.

وما يحصل للعين الجسماني من الرؤية في الجنة بعد الصفاء يحصل لبعض أهل الصفاء في الدنيا في اليقظة بالروح؛ إذ الدنيا والآخرة للروح الصافية سيان، والله الوهاب[1].

---

(1) قال سيدي عبد الوهاب الشعراني: في شهود الطائفة رضي الله عنهم: الشهود الذي تقــول بــه الطائفة ليس هو الرؤية بل هو غيرها، فهو الله تعالى مشهودٌ لنا في الدنيا غير مرئيٍّ، فلا يلتبس عليــك الأمر.

ومن الفرق بين الرؤية والشهود: أن الشهود هو ما تمسكه من نفسك من شاهد الحق المشار إليه، بخبر: «اعبدَ الله كأنَّك تراهُ»، فإن في ذلك إدخال الحق في حكم الخيال، فقوله: (كأنك تراه) هو شاهد الحق الذي أقمته في نفسك، وهذه هي درجة التعليم، ثم يرتقي العبد من هذه الحالة إلى حالة الخصوص، وهو شهود كونه تعالى يراك ولا تراه، وذلك أنك إذا ضبطت شهوده تعالى في قلبك عند صلاتك مثلا فقد أخليت شهودك عن بقية الوجود المحيط بك، وإذا تحققت ذلك علمت عجزك عن رؤيته تعالى؛ لتقييدك وإطلاقه، وضيقك وسعته، فإذا عرفت ذلك بقيت مع نظره المحقق إليك لا مع نظرك إليه؛ لأن نظرك يقيِّده ويحدده، وهو المنــزَّه عن الحدود، فعُلم أنه لولا تخيل العقل الحق تعالى للأصاغر في القبلة =

قال في المطالب الوفيَّة: والمشهور عند علماء الظاهر والباطن كالقشيري والغـزالي وغيرهما أن الشهود والرؤية إنما هما في القلب بدون المقابلة في هذه الدار الفانية؛ لأن البصر فانٍ والحق باق، ولا يُرى الباقي بالفاني، فإذا كانوا يوم القيامة ركبوا تركيبًا باقيًا، فكانت أبصارهم باقيةً، فصحَّ أن يُرى الباقي بالباقي.

ونحو هذا منقولٌ عن الإمام مالك وهو مستحسن.

واعلم أن هذه المقامات الثلاثة التي تقدَّمت عند القوم تُسمَّى جنات، فالأولى: جنة التنـزيه، والثانية: جنة التفريد، والثالثة: جنة الإجلال، ومن دخلها كلها أو بعضها لا يستغرب عليه ما يرى، وأحرى ينكر، وذلك من نحو رؤيته للمبصور مسموعًا وللمسموع مبصورًا، ومن شهوده للكون بارزًا من شيءٍ واحدٍ بداية ونهاية؛ لأن المرء في هذه الأحوال لم يكن بنفسه بل كان بربه، قال ﷺ: «**كنت سمعه الذي يسمع به...** [1]».

ومن كان بسمع الله وبصره لا ينكر عليه شيء، وهذه المعرفة بل المعرفة كلها ولا سيما هذا منها لا يحصل إلا بفيضٍ إلهي، كما إلى ذلك أشرت بقـولي في أولها: وقد يفاجئ؛ لأن هذا لا يكون إلاَّ بجذبةٍ من جذبات الرَّحمن، التي هي أفضل من عبادة جميع الأكوان، ولأجل أن المعرفة لا تحصل إلا بفيضٍ إلهي، لما سُئل الصدِّيق الأكبر ﷺ: «بِمَ عرفت ربَّك؟ قال: **عرفت ربِّي بربِّي، ولولا ربِّي ما عرفت ربِّي**».

وسُئل علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: «بِمَ عرفت ربك؟ قال: **بما عرفني به نفسه، لا يُدرك بالحواس، ولا يُقاس بالقياس، قريبٌ في بعده، بعيدٌ في قربه، فوق كل شيءٍ، ولا يُقال تحته شيء، وأمام كل شيء، ولا يُقال أمامه شيء ولا وراءه، وهو في كل شيءٍ، ولا يُقال كشيءٍ في شيءٍ، فسبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره**».

=

ما تعلَّقوا من يتأدبوا معه، وأما الأكابر فلا يحتاجون إلى هذا التخيُّل، ولذلك كان القطب دائمًا خلف الحجاب لا يرى ربه حتى يموت، فافهم.

ومن هذا الفرق أيضًا بين الرؤية والشهود: أن الرؤية لا يتقدَّمها علمٌ بالمرئيِّ، بخلاف المشاهدة يتقدَّمها علمٌ بالمشهود، وهو المسمَّى بالعقائد، ولهذا يقع الإقرار والإنكار في الشهود حين التجلي الأخروي، ولا يكون في الرؤية إلا الإقرار. وانظر: الميزان الذرية (ص39) بتحقيقنا.

(1) رواه البخاري (2348/5)، وابن حبان في الصحيح (58/2)، والبيهقي في الكبرى (346/3)، وأبو نعيم في الحلية (99/10).

والكلام في المعرفة بحرٌ لا ساحل لـــه[1].

(1) قال سيدي عبد الله الشرقاوي: فقد سُئِل الجنيد عن العارف؟ فقال: ((لون الماء لون إنائه)).

أي هو متخلق بأخلاق الله حي كأنه هو، وما هو هو، وهو هو، فالعارف عند الجماعة: من أشعر نفسه الهيبة والسكينة، وجعل أول المعرفة لله، وآخرها ما لا يتناهى، ولم يُدخِل قلبه حق ولا باطل وغاب عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق، فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلى غيره، فهو يعيش بربه لا بقلبه، وأفسدت المعرفةُ الداخلة قلبه أحوالَهُ التي كان عليها، بأن يقلبها الله تعالى إليه، لا بأن يعدمها، فإنها عند الجماعة لا تنعدم قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً**﴾ [النمل:34] فلا حال عندهم للعارف؛ لمحور رسومه، وفناء هويَّته، وغيبة أثره، وهو منقطع منقمع، عاجز على معروف، خائف متبرم بالبقاء في هذا الهيكل، وإن كان منورًا لما عرَّفه الشارع: أن في الموت لقاء الله، فتنغصت عليه الحياة الدنيا شوقًا إلى ذلك اللقاء فهو صافي العيش كدر طيب الحياة في نفس الأمر لا في نفسه، قد ذهب عنه كل مخلوق، وهابه كل ناظر إليه، ذو أنس بالله، معه تعالى بلا فصل ولا وصل، حي القلب قلبه مرآة للحق، حليم محتمل، فارغ من الدنيا والآخرة، ذو دهشٍ وحيرة، يأخذ أعماله عن الله، ويرجع فيها إليه، بطنه جائع، وبدنه عار، لا يأسف على شيء، لا يرى غير الله، تبكي عينه ويضحك قلبه، فهو كالأرض يطأها البار والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي كل ما يحب وما لا يحب، لا تمييز عنده، لا يقضي وطره من شيء، بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه، يضيعُ ما له ويقفُ مع ما للحق، لا يشتغل عنه طرفة عين، عرفَ لربه بربه، مهدي في أحواله، لا تلحظه عين الأغيار، ولا يتكلم بغير كلام الله، مستوحش من الخلق، ذو فقر وذلة، يورث غنى وعزة، معرفته طلوع حق على الأسرار ومواصلة الأنوار، حاله فوق ما يقول، استوت عنده الحالات في الفتح، يفتح له على فراشه كما يفتح له في صلاته، وإن اختلفت الواردات بحسب المواطن، دائم الذكر، ذو لوامع تسقط التمييز، لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء، تضيء له أنوار العلم؛ فيبصر بها عجائب الغيب، مستَهلَك في بحار التحقيق، صاحب أمواج تغط فترفع وتحط، صاحب وقت واستيفاء حقوق المراسم الإلهية على التمام، تعبه في تحوله من صفة إلى صفة، دائم لا يتعمل ولا يجتلب أجبذ الوقت، يسع الأشياء ولا تسعه، يرجو ولا يرجى، رحيم مؤنس، مشاهد جلال الحق وجمال الحضرة، معه مع كل وارد، يصادف الأمور من غير قصد، له وجود في عين فقد، ذل في عز، قهر في لطف، ولطف في قهر، حق بلا خلق، مشاهد قيام الله على كل شيء، فانٍ عنه باقٍ معه به، غائب عن التكوين، حاضر مع المكون، صاحٍ بغيره، سكران بحبه، جامع للتجلي، لا يفوته ما مضى بما هو فيه، ثابت المواصلة، =

=

محكم للعبادة في العادة مع إزالة العلل، طائع بذاته، قابل أمور ربه، منـــزه عن الشبيه، يجري عليه منه أحكام الشرع، في عين الحقيقة، ذو روح وريحان، قلبه طريق مطروقة لكل سالك، صاحب دليل وكشف وشهود، يلزم الوارد ويتأدب مع الشاهد، بريء من العلل، صاحب إلقاء وتلق، مضنون به مستور، بولهٍ محبوس في الموقف، ذاهبٌ تحت القهر، رجوعه سلوك، وحجابه شهود، سره لا يعلم، به زره كلما ظهر له وجه عَلِم أنه بَطُنَ عنه وجه، منفرد بلا انفراد، متواتر الأحوال بحكم الأسماء، أمين بالفهم، قابل للزيادة، موحد بالكثرة، صاحب حديث قديم، يعلم ما وراء الحجر من غير رفع حجاب، ذو أنوار، طامس شعاعاته محرقة، وفجاجات وارداته مقلقة، يرد عليه ما لا يعرف، متمكن في تلوينه، لكون خالقه كل يوم هو في شأن، مجرد بكله عن السوى، واقف بالحق في مواطنه، مريد لكل ما يُرَاد منه، ذو غيابة إلهية تجذبه، سالك في سكونه، مقيم في سفره، صاحب نظرة ونظر، يجد ما لا تسعه العبارة من دقائق الفهم عن الله من غير سبب، مهذب الأخلاق، غير قائل بالاتحاد، ذاهب في كل مذهب بغير ذهاب، مقدس الروح من رعونات النفوس، مؤمن بالناطق في سره، مصغ إليه راغب فيما يرد به، مشفق بما في طيه، مظهر خلاف ما يخفى لمصلحة وقته، لا يُحكَم عليه، غريب في الملأ الأعلا والأسفل، ذو همة فعالة، مقيدة غير مطلقة، غيور على الأسرار أن تذاع في عالم الغيب والشهادة، عن أمر الحق ولاية وخلافة، حمَّال أعباء المملكة، يستخرج غيابات الأمور، تُنشئ خواطره أشخاصًا على صورته، محفوظ الأربعة، فريد من النظر، له في الملكوت وقائع مشهودة، قائم بالحق في جمعيته، ناقد الهمة، مؤثر في الوجود على الإطلاق من غير تقييد، لكن بالميزان المعلوم عند أهل الله، مجهولاً النعت والصفة عند الغير من جميع العالم، من بشر وجن وملك وحيوان، لا يُعرَف بجد، ولا يفارق العادة فيميز، خامل الذكر، مستور الحال، عام الشفقة على عباد الله، يغرق في رحمته من أُمِرَ برحمته، حتى يجعل له خصوص وصف، عارف بإرادة الحق في عباده قبل وقوع المراد فيريد بإرادة الحق، لا ينازع ولا يقاوم، ولا يقع في الوجود ما لا يريد، وإن وقع ما لا يرضى وقوعه بل يكرهه، شديد في لين، يعلم مكارم الأخلاق من سفسافها، فينـــزلها منازلها مع أهلها تنـــزيل حكيم، بريء ممن تبرأ الله منه، محسن إليه مع البراءة منه، مصدق، مؤمّن عباد الله من غوائله، مشاهد تسبيح المخلوقات على تنوعات أذكارها، لا يظهر إلا لعارف مثله، إذا تجلى له الحق يقول: أنا هو؛ لقوة الشبه في عموم الصفات الكونية والإلهية، إذا قال: بسم الله كان عن قوله ذلك كلما قصده بهمته، لا بقوله: (كن) أدبًا مع الله، فيعطي المواطن حقها، كبير بحق، صغير لحق، متوسع مع حق، جامع لهذه الصفات في حق، واحد خبير بالمقادير والأوزان، لا يفرط ولا يفرّط، يتأثر مع الآفات لتغير الأحوال، فلا يفوته من العالَم ولا مما هو =

=
عليه الحق في الوقت شيء، مما يطلبه العالَم في زمن الحال، يشاهد نشأ الصور من أنفاسه، بصورة ما هو عليه الحق في قلبه عند خروج النفس، فإذا أورد عليه النفس الغريب من خارج لتبريد القلب، طلع على ذلك النفس خلعة الوقت، فيضيء ذلك النفس بذلك النور الذي يجد في القلب، يستر مقامه بحاله، وحاله بمقامه فتجهله أصحاب الأحوال بمقامه وأصحاب المقامات بحاله عن فاعل شهوته؛ إذ لم يجد وجه الحق في طبيعتها يبذل لك لا له، عطاؤه غير معلول، لا يَمُن إذا امتن، ويَمتن بقبول المنّ، لا يؤاخذ الجاهل بجهله، فإن جَهلُه له وجه في العلم، لا يُشعر المعطي من عنده حينما يعطيه، يُعرَّفه أن ذلك أمانة عنده أُمِرَ بإيصالها إليه، لا يُعرَّفه أن ذلك من عند الله، يفتح مغاليق الأمور المشكلة بالنور المبين، يأكل من فوقه ومن تحت رجله، يضم القلوب إليه إذا شاء من حيث لا تشعر، ويرسلها إذا شاء من حيث لا تشعر، يملك أزمة الأمور، وتملكه بما فيها من وجه الحق لا غير، ينظر إلى العلو فيستفل بنظره، وإلى السفل فيعلو ويرتفع بنظره، ويحجر الواسع، ويوسع المحجور، ويسمع كل مسموع منه، لا من حيثية ذلك المسموع، ويبصر كل مُبَصَر، لا من حيث ذلك المبصر، يقضي بين الخصمين بما يرضيهما فيحكم لكل واحدٍ لا عليه مع تناقض الأمر، يميل إلى غير طريقه في طريقه لحكمة الوقت، يغلِّب ذكر النفس على ذكر الملأ من أجل المفاضلة غيرة أن يُفَاضَل الحق، فإنه ذاكر بحق في حق، الأمور كلها عنده ذوقية لا خبرية، يعرف ربه من نفسه، كما عَلِمَ الحق العالَم من علمه بنفسه، لا يُؤاخِذ بالجريمة، عظمته في ذلته وصغاره، فلا ينتقل عن ذلته في موطن عظمته دنيا وأخرى، هو في عمله بحسب علمه، إن اقتضى العمل عمل، وإن اقتضى أن لا يعمل لم يعمل، عنده خزائن الأمور بحكمه، ومفاتيحها بيده، يُنَـــزِّل بقدر ما يشاء، ويخرج ما يشاء، غوّاص في دقائق الفهوم عند ورود الصلوات، له نعوت الكمال، له مقام الخمسة في حفظ نفسه وغيره، وينظر في قوله: ﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه:50] فلا يتعداه، يدبر أمور الكون بينه وبين ربه، كالمشير العالِم الناصح في الخدمة، القائم بالحرمة، لا أينية لسره، لا يبخل عند السؤال، ينظر في الآثار الإلهية الكائنة في الكون؛ ليقابلها مما عنده لما سمع قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾ [فصلت:53]، يسمع نداء الحق من ألسنة الخلق، يسع الأشياء ولا يسعه سوى ربه، فهو أينه وعينه، مراقب للأوامر الإلهية الواردة في الكون، ثابت في وقت التزلزل، لا تزلزله الحادثات، ليس في الحضرة الإلهية صفة لا يراها في نفسه، يظهرُ في أي صورة شاء بصفة الحياة، مع الوقوف عند الحدود، يعرفُ حقه من حق خالقه، يتصور في الأشياء بالاستحقاق، ويُصرف الحق فيها بالاستخلاف، له الاقتدار الإلهي من غير مغالبة، لا تنفذ فيه همم الرجال، يحصى أنفاسه بمشاهدة صورها، فيعلم ما زاد وما نقص في كل يوم وليلة، ينظر في المبدأ
=

وتكلم شيخنا وأرضاه على هذه الجنان في مطية المجد بقوله:

فـــأولا يرتـــع في التنـــــزيه   للذات والوصـــف عـــن التشـــبيه

إلى آخر كلامه فيها ﷺ وأرضاه.

=

والمعاد، فيرى التقاطر في الدائرة، يلقي الكلمة في المحل القابل، فيبدو صورته وحاله في أي صورة كان، ما يطأ مكانًا إلا حيِيَ ذلك المكان بوطئته؛ لأنه وطئته بحياة روحية، إذا قام قام بقيامه ربه، ويغضب لغضبه، ويرضى لرضاه، فإن حالته في سلوكه كانت هكذا فعادت عليه ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن:60]، لا يخطر له خاطر في شيء إلا تكوَّن، ولا يعرف ذلك الشيء أنه كونه له، على الأشياء شرف البصر على العماء لا شرف الاستواء فهو وحيد في الكون، غير معروف العين، من لجأ إليه خسر ولا تنقضي حاجته إلا به؛ فإنه ظاهر بصورة العجز وقدرته من وراء ذلك العجز، لا يمتنع عن قدرته ممكن، يحسن للمسيء والمحسن، يرجع إلى الله في كل أمر، ولا ينتقم لنفسه ولا لربه إلا بأمره الخاص، فإن لم يأمره عفا بحق؛ لشهوده السابقة في الحال، القليل عنده كثير، والكثير قليل، يجري مع المصالح فيكون الحق له ملكًا، يسبح أسماء الله تعالى بتنـــزيهها من أن تناله أيدي الغافلين، غيرة على الجناب الإلهي من حيث كونها دلائل عليه دلالة الاسم على المسمى، إن وُلِيَ منصبًا يُعطَى العلوم، لم يُرَ فبه متعاليًا بالله فأحرى بنفسه، يعدل في الحكم ولا يتصف بالظلم، جامع علوم الشرع من عين الجمع، مستغنٍ عن تعليم المخلوقين بتعليم الحق، ويعطي ما تحصل به المنفعة، ولا يعطي ما تكون به المضرة، إن عاقب فتطهير، لا تبقى مع نور عدله ظلمة جور، ولا مع نور علمه ظلمة جهل، يبين عن الأمور بلسان إلهي؛ ليكشف غامضها ويجليها في منصتها، يرثُ ولا يورث بالنبوة العامة، يتصرف ويعمل ما ينبغي، يُؤذَى فيحلم عن مقدرة، وإذا أخذ فبطشه شديد؛ لأنه خالص غير مشوب برحمة.

وقال الشيخ أبو يزيد: بطشي أشد من بطش الله.

فهذه بعض صفات العارف من بعض ما ذكره في الفتوحات في باب المعرفة.

فينبغي لكل من يدعى المعرفة أن يعرض صفاته عليها؛ ليعلم هل هو متخلق بها أو لا فإن لم يجد نفسه بتلك المثابة كان المناسب له التحقق بالعجز وترك الدعوى والله أعلم. ((**تُزيِّد العرفان**)):أي المعرفة بأحكام الله تعالى وما يليق بالأدب مع الحضرة العلية. وانظر: شرح الحكم الكردية (ص162) بتحقيقنا.

وأما من بعد هذه الجنان فإن العارف تتلاطم عليه بحور الغيب وأنواره، كما إلى ذلك أشرت بقولي غفر الله لي كل قولي وعملي:

مِنْ بَعْـد ذَا تَلاطمـت بحـور غيـب وأنـوار لـه تَنُـور
إنْ خَاضَـهَا بسـفنِ الشَّـريعةِ نَجَـا وإلاّ فَـيرى قطيعـةَ
وإنْ يَشَـأ يَلـتقط الـدرّ يـرى بهـا مـن اللآلـئ درًّا بهـرًا
ويأخـذ اليَـاقوت لا بـثمنٍ ولا يُبـاع أبـدًا بـثمنٍ
وإن عن الأنـوار غـضَّ بصـرًا تأدّبًـا فَـازَ وغيبًـا بصـرا
إلاّ فمن رفـع للشـمسِ البصـر بصـره خُطِـفَ أو قـلَّ نظـره

قولي: (**من بعد ذا**)... إلخ البيت، أعني أن الشخص بعد هذه الجنان المتقدّمة تتلاطم عليه (**بحور الغيب**): أي يضرب بعضها بعضًا، (**وتنور**) لـه أنوار: أي تظهر لـه أنوارٌ لا تُدرك بالحس، ولا تعقل بالنفس.

ثم ذكرت ما يليق به أن يفعل في البحور بقولي: (**إن خاضها**...) البيت، أعني أن تلك البحور إن خاضها المرء: أي مشى فيها (**بسفن الشريعة نجا**) من العاطب، وفاز بالمطالب، وإن فعل ذلك بأن رام أنه يخوضها بغير الشريعة فإنه (**يرى قطيعة**): أي مقطوعًا عن المطالب لما يناله من المعاطب.

قولي: (**وإن يشأ**...) البيتين، أعني أنه إن ركب في سفينة الشريعة وشاء: أي أراد أن يلتقط من تلك البحور شيئًا، فإنه (**يلتقط**) (**بها من اللآلئ دُرًّا**): أي لؤلؤًا عظيمًا يبهر العقول: أي يغلبها تكييفه، (**ويأخذ**) منها أيضًا (**الياقوت**) من الجواهر (**لا بثمن**) قيمته، وهو بضم الثاء المثلثة، بل ولا بعشره، والذي أخذ منه (**لا يُباع**) عنده (**بثمنٍ**) ما، وهو بفتح المثلثة، ولو كثر؛ لأنه لا تبلغ قيمته، وهذا استعارة عن المعاني والمعارف التي تظهر للشخص وتتجلّى له.

وذكرت ما يليق به أن يفعل مع الأنوار بقولي:

وإنْ عن الأنـوار غُـضَّ بَصـَرًا تَأدبًـا فَـاز وغيبًـا بصـرا

أعني أنه (**إن غضَّ**): أي خفض بصره عن الأنوار (**تأدبًا**): أي لأجل الأدب مع من أظهرها لـه، (**فاز**): أي ظهر بمقصوده، وبصر (**غيبًا**): أي الغيب الذي يمكن أن يبصر.

إلا فمن رفـــع للشمس البصـــر بصــــره خـــطف أو قـــل نــــظر

قولي: (**إلا**..) أعني أنه إن لم يفعل ذلك: أي إن لم يغض بصره عنها فإنه يقع فيه مـــا يقع في الذي (**رفع**) بصره (**للشمس**)، من كونه يخطف (**بصره**) أو يقل نظره، يخطف إن كثر ويقل إن لم يكثر.

هذا حاصل معنى الأبيات، ولا بدَّ إن شاء الله من الإتيان بطرفٍ من الكلام على بعض هذه البحور التي أشرت إليها في النظم والأنوار كذلك، وليجعل ذلـــك إن شـــاء الله في تنبيهين:

الأول: في البحور، وفيه فروع:

الأول: اعلم أن البحر لغةً: الماء الكثير ملحًا كان أو عذبًا، وهو خلاف البر، سُمي بذلك لعمقه واتساعه، والجمع: أبحر وبحور وبحار، وكل نهرٍ عظيمٍ بحر، وشاهد العذب:

ونحن منعنا البحر أن يشربوا به وقد كان مـــنكم مـــاؤه بمكـــان

ومنه قولهم: إن فلانًا لبحر: أي واسع المعروف، وسُمي الفرس الواسع الجري بحرًا، ومنه قول النبي ﷺ في فرس أبي طلحة: «**إنَّ وجدناه لبحرًا**[1]».

وقيل: المراد بالبحر الأرض التي فيها الماء، ويدل له قول الجوهري: لعمقه واتســـاعه، فيكون كلام القاموس على حذف مضاف، وأن المراد محل الماء.

والحديث: «**هو الطهور ماؤه**[2]»، يعني والشيء لا يُضاف إلى نفسه.

قال بعضهم: ووصفه بالعمق والاتساع قد يشهد لكل من الطرفين.

وقال الزجاج: كل نهرٍ لا ينقطع ماؤه فهو بحرٌ.

---

(1) رواه البخاري (926/2)، (1049/3)، (1051/3)، (1084/3)، ومسلم (1802/4)، وأبو داود (715/2)، والترمذي (199/4)، وأحمد (291/3)، وابن حبان في الصحيح (115/13).

(2) رواه أبو داود (69/1)، والترمذي (100/1)، والنسائي (50/1)، (176/1)، (207/7)، وأحمد (361/2)، وابن ماجه (136/1)، (137/1)، والدارمي في السنن (201/1)، وابن حبان في الصحيح (51/4).

وقال الأزهري: كل نهرٍ لا ينقطع ماؤه مثل: دجلة والنيل وما أشبههما من الأنهار العذبة الكبار فهو بحرٌ، وأما البحر الكبير الذي هو مفيض هذه الأنهار فلا يكون ماؤه إلا ملحًا أُجاجًا: أي مُرًّا، ولا يكون ماؤه إلا راكدًا، وأما هذه الأنهار العذبة فماؤها جارٍ.

وسُميت هذه الأنهار بحارًا لأنها مشقوقة في الأرض شقًّا، وأصل البحر: مكان واسع جامع للماء الكثير، ثم اعتبر تارة سعته المكانية فيُقال: بحرت كذا: وسعته سعة البحر، تشبيهًا به، ومنه: بحرت البعير: شققت أذنه شقًّا واسعًا، ومنه البحيرة، وسموا كل متوسعٍ في شيءٍ بحرًا، فالرجل المتوسع في علمه بحرًا، والفرس المتوسع في جريه بحر، واعتبروا البحر تارة ملوحته، فقيل: ماء بحر: أي ملح، وقد بحر الماء، وسُمي ما يعرض عليه الشعر من الأوزان بحرًا؛ لأنه يوزن به ما لا يتناهى من الشعر، فالبحر الذي لا يتناهى لما يغترف منه.

فإذا تمهَّد لديك هذا فاعلم أيضًا أن لكل قومٍ مصطلحا في فهمٍ، ولا مُشاحة في الاصطلاح، وقد سمَّى أهل التصوف أشياء من الغيب بحورًا؛ لما تقدَّم من المعاني اللغوية التي في البحر، والمجانسة بينهما ظاهرة، ولو في كون البحر لا يتناهى بما يغترف منه فكذلك هي لا تتناهى بما يغترف منها من المعارف، فافهم تغنم وإلا فسلِّم تسلم.

الفرع الثاني: اعلم أن هذه البحور اندرست منذ أزمنةٍ متطاولةٍ حتى صارت نسيًّا منسيًّا، بل صار المتكلم فيها كأن لم يوجد، والمشاهد لها كأن لم يشهد، حتى تفضَّل الله على الأمة بشيخنا والدنا الشيخ: محمد فاضل بن مامين ﷺ وأرضاه آمين، تكلَّم فيها في تأليفه المُسمَّى بـ(**مطية المجد**) بما يشفي ويكفي، إلا أنه نظم والنظم ضيق على كثيرٍ من العبارات، بل لا يليق فيه إلا بعض الإشارات، لكنه ﷺ صار يفسر التأليف لمن يقرأه من أوله إلى آخره، ويفسرها للقارئ تفسيرًا يجعلها كالمشاهد بالعيان عند العام والخاص لمن له جنان، ثم إن بعض مريديه طلب منه الكلام عليها بشرحٍ يشفي للغليل ويبرئ العليل، فإذا ذلك آخر دهر الشيخ ﷺ؛ حيث لم يكن له التفات على غير الله، كما كان ذلك دأبه عن كل لاهٍ.

فالتفت شيخنا ﷺ إلى ابنه الفائق العالم الذائق محمد المأمون رحمة الله تعالى علينا وعليه، وقال له: أما أنا فإني مشتغلٌ عنه، وأما أنت فلو تكلَّمت فيها، فسمع مقالته التي قال، وعلم أنها من الكبير المتعال، فتكلَّم فيها وشمر عن ساعد التحقيق، وأتى فيها بما يغني عن الشرح والتعليق.

وسمّى شرحه لها بكتاب: ((**السبح والعبور على ما في المطنية من البحور**))، وكل هذا أعني طلب المريد للكلام عليها، وشرح محمد المأمون لها وأنا في دهري غائب إلى الحج، فلما قدمت طلب مني مرارًا وتكرارًا أن أتكلم عليها بكلامٍ يقربها للأذهان، التي ليست لخاصة خاصة الإنسان؛ لأن محمد المأمون ﷺ إنما تكلم عليها بكلام لا يفهمه إلا أهل الكمال، وأما أهل النقص مثلنا فإنهم لا يدرون أكثر من ذلك.

يُقال: فلبثت برهة من زمني وأنا أُقدم رجلاً وأُؤخر أخرى، هل أقدم على ذلك في الدنيا أم أتركه إلى الأخرى؟ حتى تذكرت من سُئل عن علمٍ.

وتذكرت: ((**خاطبوا الناس بما تحتمله عقولهم**))، تبيَّن لي أن لا بأس إن شاء الله بالكلام عليها بما يحتمله عقل أدنى أهل ذوق من لديها، مع أن كثيرًا منها لا يليق به إلا ما فعل من تلويحٍ، لا ما يطلبه غير أهلها من التصريح؛ لأن إفشاء سر الربوبية كفر، وأغلب هذه أسرارٌ عبّر عنها بلفظ البحار.

الفرع الثالث: اعلم أني لولا ذكرت هذه البحور في قصيدتي التي مطلعها: ((**ألا عمَّ صباحًا**)) مادحًا بها شيخنا، وأنه خاضها كلها، وأشرت إليها في هذه القصيدة فصار الناس يسألوني عنها، لما تكلمت فيها ببنت شفة عن الكلم، ولما حركت فيها على دواة نفث قلم؛ لأن شهود هذه البحار مواهب إلهية لا تؤثر فيها الأعمال البدنية، بل لا يشرب منها من جال من الرجال، ولا يخوضها إلا بفضل الله ذو الأفضال، وبعض من شاهدها لا يقدر أن يعبر عنها، ولا يدري ما يقول فيها لما يشاهد منها، ولذلك لما تفضَّل الله بفضله، قال فيها اللسان ببعض قوله:

شربتُ شرابًا لا ذوو الخمر تشرب ... وشاهدت ما الأبصار عنه تحجبُ

وخضتُ بحارًا لا تُخَاضُ بحيلةٍ ... ولكنَّها فضلاً تُخَاضُ وتُشربُ

الفرع الرابع: اعلم أن عدد ما يتكلمون عليه من هذه البحور في غالب الأحوال إنما هو عدد إحدى وعشرين، ويتركون غير ذلك مع أنها غير محصورةٍ للمشاهدين، وهذا العدد هو الذي قلت فيه في: ((**ألا عمَّ صباحًا**)):

فلله بحر الإذن بحر لأمرِهِ ... وبحر الصِّفات الحسن عنهم تنسمَا

وبحر ليس ثم عقلاً تأصلاً ... وبحر لروح بحر عقل واقلمَا

ولوح وعرش ثم كرسي وحجبهم	وبحـــر لأفـــلاك فعنـــهم تقـــدمَا
وبحر تحيطـــه والملائكـــة العلـــى	وبحـــر لا بـــأس وجـــن ومنســـمَا
وبحر هنا للسرِّ قـــد كـــن ســـرّه	وعن جنةٍ والنَّار ســـار وســـر مـــا
وبحر لـــه عن ذي إحاطـــةِ ربنـــا	به غـــرق الأقطـــاب فيـــه تقســـمَا
فباطنـــــــه في اللهِ دامَ مغرقـًــــــا	وظـــاهره بـــين الأنـــامِ مقسَّـــمَا

واعلم أن هذه البحور في الحقيقة إنما هي بحران:

بحر الظاهر، وبحر الباطن، والأصل بحر الباطن، وبحر الظاهر ناشئ عنه.

وإن شئت قلت: بحر الشريعة وبحر الحقيقة، والأصل بحر الحقيقة، وبحر الشريعة ناشئ عنه، وإن شئت قلت: هو بحرٌ واحدٌ تفجَّر منه ما لا يُحصى من البحور، هو بحر الحقيقة، وغيره بالنسبة إليه كالجداول مدى الدهور.

وقال بعض العارفين: العالم بمنـــزلة البحر، فأجرى منه وادٍ، ثم أجرى من الوادي نهر، ثم أجرى من النهر جدول، ثم أجرى من الجدول ساقية، فلو أجرى إلى الجـــدول ذلـــك الوادي لغرقه وأفسده، ولو سال البحر إلى الوادي لأفسده، وهو المراد من قولـــه تعالى: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾ [الرعد:17]، فبحور العلم عند الله تعالى، فأعطى الرسل منها أودية، ثم أعطت الرسل من أوديتهم أنهارًا إلى العلمـــاء، ثم أعطـــت العلماء إلى العامة جداول صغارًا على قدر طاقتهم، ثم أجرت العامة سواقي إلى أهـــاليهم بقدر طاقتهم.

وعلى هذا ما رُوي في الخبر:

«للعلماء سرٌّ، وللخلفاء سرٌّ، وللأنبياء سرٌّ، وللملائكة سرٌّ، ولله من بعد ذلك كلـــه سرٌّ، فلو اطَّلع الجهال على سر العلماء لأبادوهم، ولو اطَّلع العلماء على ســـر الخلفـــاء

لنابذوهم، ولو اطَّلع الخلفاء على سر الأنبياء لخالفوهم، ولو اطَّلع الأنبياء على سر الملائكة لاتهموهم، ولو اطَّلع الملائكة على سر الله لطاحوا وبادوا طائرين» [1].

والسبب في ذلك أن العقول الضعيفة لا تحتمل الأسرار القوية، كما لا يحتمل نور الشمس أبصار الخفافيش، فلما زيدت الأنبياء في عقولهم قدروا على احتمال أسرار النبوة، ولما زيدت العلماء في عقولهم قدروا على احتمال أسرار ما عجزت العامة عنه، وكذلك علماء الباطن وهم الحكماء، زيد في عقولهم فقدروا على احتمال ما عجزت عنه علماء الظاهر في الدهور، وهذا أوان الشروع في الذي هو منها الآن مذكور ومسموع، وأسأل الله العون والتوفيق على ما يرضيه من تشريعٍ وتحقيقٍ.

ولنقدم لك أيها الرائي قبل الكلام عليها أنك تعلم علم اليقين أن هذه البحور ما منها واحدًا إلا وهو واردٌ في القرآن الكريم، أو في حديث رسول الله ﷺ، أو فيهما معًا، فإن ذكرت لك شيئًا من أدلته فيها وإلا فاعلم أنه فيهما، وإنما أعرضت عنه لكونه عندي غير مشتبه، ولأني أيضًا لو تتبعت ذلك لاحتجت إلى مجلداتٍ كثيراتٍ، بل إني مختصر غاية الاختصار، لكن إن شاء الله أُبيّن ما أمكنني من تبيين ليس عليه من غبارٍ، وإنما مثلي مع أهلها كمثل الترجمان الذي ليس عليه إلا أبين التبيان.

* * *

فأول هذه البحور عندهم: «بحر الإذن»:

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿**قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾ [يونس:59]، وهو عندهم عبارة عن انعدام العبد انعدامًا محضًا: أي خالصًا عن شهود نفسه وغيره، بل كان الحق سمعه وبصره ويده، ويد الحق وسمعه وبصره لا يعجزها شيء، فبسبب ذلك صاحب هذا المقام إن شاء أعطى، وإن شاء منع، وإن شاء رفع، وإن شاء وضع؛ لأنه كان لله فكان الله له، ومن كان الله له فيما أراد فعل ما أراد.

---

(1) **قال سيدي محمد وفا** ﷺ **وعنَّا به:** السر هو ما يخفى في البيان، وحقيقته: معنًى يُعْجِز عن تصور ما هو الفكر البشري، وغايته: وجدانٌ يقوم بالقلب لا يمكن التعبير عنه بوجهٍ من الوجوه اهـ المقامات (ص21).

وصاحب هذا البحر صار غيبًا طلسما: أي منسوبًا إلى الغيب، والغيب ما غاب حسًّا أو معنًى، ولهذا صار من أسماء الله، وبهذا فسَّر بعضهم الذين يؤمنون بالغيب أنه الله، والطلسم ما ظهرت فائدته وجهلت حقيقته.

واعلم أن الإذن إذنان:

إذن لا اختيار للعبد فيه، وإذن له فيه الاختيار.

فمن الأول: الإذن له في الوجود، ونفخ الروح فيه وولادته ونحو ذلك، فإن ذلك كله إذن في الحقيقة؛ إذ لو لم يؤذن له فيه لما وقع.

وأما الثان:ي فظاهر وكثير، وأيضًا حقيقي وشرعي، فالشرعي ما أذن للشخص فيه شرعًا من مباحٍ ومندوب وواجب، والحقيقي منه ما يُدرك ومنه ما لا يُدرك، فمما لا يُدرك ما تقدَّم، ومما يُدرك سائر التحرك والسكون ونحوهما، والكون كله في الحقيقة مأذون له فيما هو فيه حقيقة؛ إذ لو لم يؤذن له لما فعل، فالعبد مجبورٌ في قالب الاختيار تارة، وطورًا في قالب الإكراه.

ولذلك قال بعضهم إن في آية: ﴿**قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾.

إشارة إلى أنه لا يجوز للمرء أن يعتقد ويقول أن الرزق المعنوي من الواردات الإلهية، والشواهد الربَّانية حرامٌ على أرباب النفوس، وحلالٌ على أصحاب القلوب، وأن تحصيل هذه السعادات ونيل هذه الكرامات ليس من شأننا، وإنما هو من شأن الأخيار الكبراء وخواص الأنبياء والأولياء، فإن هذا افتراءٌ على الله.

فإنه تعالى ما خصَّ قومًا بالدعوة إلى الدرجات والمقامات العليَّة، بل جعل الدعوة عامة؛ لقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ**﴾ [يونس:25]، وقوله: ﴿**يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم**﴾ [إبراهيم:10].

فتحريم هذا الرزق على نفسه من خساسة نفسه، وركاكة عقله، ودناءة همته، وإلا فالله تعالى لم يسد عليه هذا بل هو الفيَّاض الوهَّاب.

وبحر الإذن بحرٌ لا ساحل له، ومن شاهده لا يستغرب أن يعطيه الله فضله أو يعطيه من كان في الخساسة شكله.

وفي الحكم العطائية وشرحها: «**من استغربَ أن فقد استعجزَ القدرةَ الإلهية،شهوته، وأن يُخرجَه من وجودِ غفلته،** التي شملته في جميع الحالات، **فقد استعجزَ القدرةَ الإلهية،** ومن استعجزها فقد كفر أو كاد»[1].

ودليـــل ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿**وَكَـانَ اللَّهُ عَلَـى كُـلِّ شَـيْءٍ مُقْتَـدِرًا**﴾ [الكـهف:45]، أبان الله سبحانه أن قدرته شاملة صالحة لكل شيءٍ، وهـذا أخـس الأشياء، وإن أردت الاستعانة على تقوية رجائك في ذلك فانظر لحال من كان مثلـي، ثم أنقذه الله وخصَّه بعنايته، كإبراهيم بن أدهم، وفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبـارك، وذي النون، ومالك بن دينار، وغيرهم من فجر في البداية، وقد صاروا إلى ما صاروا إليه في النهاية، وذلك بأن الله تبارك وتعالى بمجرد ما يأذن في أمرٍ كان على وفق ما كان، ومن شاهد هذا البحر ولم يركب له في سفينة الإذن الشرعي غرق، فليحذر المرء من السير فيه من غيرها؛ فإنه لا ينجو ولا ينال الكثير من خيرها؛ لأنه إن شاهده صار المستحيل عنـده جائزًا والجائز مستحيلاً، والعدم صار وجودًا والوجود صار معدمًا، فليثبت عن هـذا في سفينة الشرع؛ فإنها تنجيه وتبلغه مرامه، وليجعل الشهود قلبيًّا غيبيًّا، والعمل بدنيًّا حسيًّا.

* * *

ثاني البحور: «**بحر الأمر**»

والأصل فيه: ﴿**فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [غافر:68].

وقول الله تعالى: ﴿**أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف:54]، وهو عنـدهم القضـاء والتصرف بانجلاء: أي إظهار الكائنات أجسامًا وأرواحًا، وقيل: أرواحًا فقط، والخلـق الأجسام، قال تعالى: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ**﴾ [النحل:12]: أي مذللات بقضائه وتصرفه لما يراد منها من الطلوع والأفول والحركات المقدرة والأحـوال الطارئة عليها.

ثم قال تعالى: ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾، وذلك أن العالم وهو ما سوى الله منحصر في نوعين: عالم الخلق، وعالم الأمر، فالمراد عندهم بعالم الخلق عالم الأجساد والجسمانيات، وعالم الأمر عالم الأرواح والمجردات.

---

(1) انظر: إيقاظ الهمم لسيدي ابن عجيبة (الحكمة 232).

وقوله: ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ إشارة إلى هذين العالمين، عبَّر عن العالم الأول بعالم الخلق؛ لأن الخلق عبارة عن التقدر، وكل ما كان جسمًا أو جسمانيًّا كان مخصوصًا بمقدارٍ معين، فعبَّر عنه بعالم الخلق، وكل ما كان مجردًا عن الحجم والمقدار كان من عالم الأرواح، ومن عالم الأمر مكونات بمجرد أمر: (كن)، فخص كل واحدٍ منها باسمٍ مناسبٍ له.

وقيل: (ألا له الخلق والأمر) وقيل: الخلق: عالم العين، والكون والحدوث روحًا وجسمًا، والأمر عالم العلم والآلة والوجوب، وعالم الخلق تابع لعالم الأمر؛ إذ هو أصله ومبدأه، ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء:85]، والله غالبٌ على أمره، ثم إن هذا البحر الذي يفاض هنا لا مانع له من هذه التأويلات إلا أنه في عالم العلم والآلة والوجوب هو المراد عندهم، وهو وإن كان أصلاً لعالم الخلق لا يبرز إلا بعد عالم الخلق في الشهادة؛ لكون الأمر الظاهر لا يتعلق بالجسم إلا بعد بروزه من العدم، ولذلك لا تدخل الروح في الجسم إلا بعد بروزه من العدم ولو كانت موجودة قبله.

والمراد بهذا الأمر الأمر المحض الذي لا يكون معه امتناع؛ لأن الأمر أمران: أمر شرعي، وأمر حقيقي، فالشرعي هو الذي يحتمل الامتناع، ومتعلقه ما فيه روح ذات عقل يمكن معهما امتثال أو امتناع، أما الحقيقي فهو أمر التكوين ابتداءً ودوامًا، ولا يكون معه امتناع، ولذلك إذا شاهده من شاهده شاهد بحرًا لا نجاة منه؛ لامتناعه من امتناعه مما يراد به أزلاً وأبدًا، وإلى هذا البحر أشرت بقولي في قصيدتي: «**أصبحت**»:

فالآمرون وكل من يروا أمري ومن نهوا كلهم أمر له أمرًا

وهذا تقريبٌ للأذهان؛ لأنه لا مفهوم لمن يأمر عمَّن لا يأمر، بل كل كائنٍ فهو من أمره أبدًا، فبسبب ذلك لا نجاة له إلا إذا ركب سفينة الشرع، وصار ناظرًا للأمر الشرعي، عازمًا على امتثاله ما أمكنه، وإن كتب عليه شيئًا مما لم يؤمر به شرعًا امتثل أمر التوبة، فتاب والله يحب التوابين، فهو بسبب ذلك محبوبٌ، ولو ارتكب كل مرغوبٍ جعلنا الله من المحبوبين آمين.

***

ثالث البحور: ((بحر الصفات)):

والأصل فيه: ﴿**عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ [الحشر:22]، الملك القدوس أسماء الصفات، واعلم أن الصفة ما تبلغك حالة الموصوف: أي ما توصـــل إلى فهمك معرفة حاله وتكيفه عندك، وتجمعه في وهمك، وتوضحه في فكـــرك، وتقربـــه في عقلك، فتذوق حالة الموصوف بصفته، فحينئذٍ إما أن يميل الطبع إليه لوجود الملائم، وإما أن ينفر لذوق المخالف، والصفة تابعة للموصوف، توجد بوجوده وتُفقد بانعدامه.

والصفة عند علماء العربية على نوعين: صفة فضائلية، وصفة فاضلية، فالفضائلية هي التي تتعلق بذات الإنسان كالحياة، والصفـــة الفاضلية هـــي التي تتعلق به وبخارج عنـــه كالكرم وأمثال ذلك.

وقال المحققون: أسماء الحق تعالى على قسمين، يعني الأسماء التي تفيد في نفسها وصفًا فهي عند النحاة أسماء نعوتية:

القسم الأول: هي الذاتية كالأحد، والواحد، والفرد، والصمد، والعظيم، والحـــي، والعزيز، والكبير، والمتعال، وأشباه ذلك.

القسم الثاني: هو الصفاتية كالعلم والقدرة، ولو كانت من الصفات النفسية كالمعطي والخلاَّق، ولو كانت من الأفعالية، وأصل الوصف في الصفات الإلهية اسمه (الرحمن)؛ فإنه مقابل لاسمه (الله) في الحيطة والشمول، والفرق بينهما أن الرحمن مع جمعه وعمومه مظهر للوصفية، والله مظهر للاسمية.

والصفات على أربعة أقسام: منها صفات ذاتية كالحياة، ومنها جلالية كالكبريـــاء والعزة، ومنها جمالية كالرحمة، ومنها كمالية كالمملكة والربوبية، وكلها في الحقيقة ذاتية كمالية: أي لها الكمال في الجميع، ولا بدَّ لكل صفةٍ من صفاته من أثرٍ تؤثره، وذلك الأثر هو مظهر تلك الصفة كمالية أو جمالية أو جلالية، وتلك المظاهر هي بحر الصفة، وكـــل مظهرٍ سار في غيره سار فيه غيره، وهذا البحر لا يُدرك؛ لأن الصفة لا تُدرك، وليس لهـــا غايةٍ بخلاف الذات؛ فإنها تُدرك إن لم تكن ذات الله تعالى لا صفاته مدركة ولا ذاته.

قولهم: إن الصفة لا تُدرك بخلاف الذات مثاله، أنك ترى نفسك وتدرك جرمـــك ولكن ما فيك من صفة شجاعة وكرم وغير ذلك لا تدركه، وكل موصوفٍ فصفته أعظم من ذاته إلا الله تعالى؛ فإن صفاته كذاته، بل هي عينها عند المحققين؛ لحصـــول المخالفـــة

الكاملة، بل لا تصح المخالفة الحقيقية إلا بذلك؛ لأنا لما علمنا أن ذواتنا غـير صـفاتنا، وعلمنا بالمخالفة قطعًا لم يبقَ إلا أن نقطع أن الصفات عين الذات، وإلا وقع التشبيه وهو مرفوع بالتنـزيه.

وأنت إذا تتبعت الصفات الأسمائية وعلمت أن كل واحدٍ هو عين صاحبه، علمـت عين يقين أن صفاته عين ذاته.

وقولهم: إن الذات لا تُدرك فباعتبار أنها عين الصفات.

وإلى هذا المعنى أشار تعالى بقوله: ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَـارُ**﴾ [الأنعـام:103]؛ لأن الأبصار من الصفات، ومن لم يدرك الصفة لم يدرك الذات، فسبحان من لا يعلم قـدره غيره، ولا يبلغ الواصفون قدر صفته.

قال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الزمر:67]، وهذا مجلى من كشف له عنه ذاق لذة اتِّصاف الله بأوصافه، فإذا ترقَّى فيه بلغ إلى معرفة كيفية الاتصاف بأوصافه، وفيه التناهي والدخول.

فافهم على أنه لا يفهمه إلا المتهيئون للكمال، المقرّبون من ذي الجلال والإكرام.

وكم دون هذا المقام من أسمر وحسام، كما قيل عن بعض الكُمَّل من الأنام:

أولع قلـبي مـن زرود بمائـه ... ويا ولهى كم مـات ثمـة والـعُ

ولي طمع بين الأجارع عهـده ... قديم وكم خابت هناك المطـامعُ

وذلك أن هذا البحر لا يسبحه شخص إلا بعد أن يفنى أولاً عن نفسه بظهور ربـه، ثم يفنى ثانيًا عن ربه بظهور سر الربوبية، ثم يفنى ثالثًا عن متعلقات صفاته بمتحققات ذاته، فيترقَّى من المرتبة الكونية إلى المرتبة القدسية، ويصير في مرتبة:

«**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»، فيظهر لـه أن ما ظهر إنما ظهر به وصفًا وصفًا، ولم يغير ما كان عمَّا كان، بل كان وهو الآن على ما عليه كان، وأنشدوا:

على العهد من تلك المعاهد زينـب ... ومـا غيرتها الحادثـات فتحجـب

لقد حفظت تلك العهود ولم تكن ... تضـيع عهـدًا بالمحصـب زينـب

فإن نقلت عنها الوشـاة التجنبـا ... فمن أجل ما يهوى الوشـاة التجنـب

واعلم أن المعلومات إما معدومات يمتنع وجودها، وإما موجودات يمتنع عـــدمها، أو موجودات لا يمتنع عدمها، ولكن من هذه الأقسام الأربعة أحكام وخواص وصـــفات، والكل معلوم لله تعالى، فإذا تفجر هذا البحر على العارف رآها كلها من الله ولله وبالله، بل لا يشهد غير الله، ولا يصح عنده ضمير متكلم إلا الله، ولا ضمير مخاطب، ولا ضمير غائب إلا الله سبحانه.

فإذا سمع مثلاً أحدًا يقول: أنا لا يسبق في قلبه إلا أنه الله؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ**﴾ [طه:14].

وإذا سمعه يقول: أنت لا يسبق في قلبه إلا أنه الله؛ لقوله تعالى: ﴿**لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْـــتَ**﴾ [الأنبياء:87]، وإذا سمعه يقول: هو لا يسبق في قلبه إلا أنه الله؛ لقوله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّـــهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [الحشر:22].

كما حُكي عن بعض المشايخ أنه قال: رأيت بعض الوالهين، فقلت له: ما اسمـــك؟ فقال: هو، قلت: من أنت؟ فقال: هو، قلت: من أين تجيء؟ قال: هو، قلت: من تعـــني بقولك هو؟ فما سألته عن شيءٍ إلا قال: هو، فقلت: لعلك تريد الله، فصاح وخرجـــت روحه، ولذلك يُقال: كن من الذاكرين بهو، ولا تلتفت إلى المخالفين؛ فإنهم أهل الأهواء، وهذا يقعون فيه لشهودهم أن الصفات كلها لله، فضمير (أنا) الراجع إلى الله تعالى بالتكلم هو نفس ضمير المخاطب بـــ(أنت)، وكلاهما ضمير (هو) أيضًا، وضمير هو هو ضميرهما أيضًا، وإلى هذا المعنى أشرت بقولي في قصيدتي التي مطلعها: (**لقد لاح من عند هوى راح لائحًا**):

فأنت أنا وهو الآنية ســـابقًا   ولا لك غير في الهويـــة فاتحًـــا

أعني أن ضمير الخطاب في جهة الله سبحانه هو ضمير التكلم، وهو ضـــمير الغيبـــة سابقًا: أي قديمًا، وليس لـــه: أي لله تعالى غير يفتح هويته: أي يقولها لـــه، بل هو القائل لذلك، فحينئذٍ صار الوصف بالمتكلم: أي بضمير المتكلم الذي لا أعرف منه لا ينبغي إلا لله، كما قال ﷺ للذي سأله فقال: «**أنا من أنا من أنا، إذا سُئل أحدكم عن اسمه فليقل: فلان بن فلان؛ لأن الذي يُعرف بأنا إنما هو الله**[1]».

(1) انظره في: الميزان الذرية للشيخ الشعراني (ص51) بتحقيقنا.

وصار الوصف بضمير الخطاب الذي صاحبه مشاهد شهودًا لا ينبغي معه إنكار أيضًا، لا ينبغي إلا الله، وصار الوصف بضمير الغيبة التي صاحبها لا يدرك، حتى كأنه من غيبته عن الإدراك غائب لا ينبغي إلا لله، فيضمحل هنا العارف عن نفسه، ويضمحل عنه غيره، ولا يبقى عنده موصوف بصفةٍ ما إلا الله، فيشاهده هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وكل واحدٍ هو نفس صاحبه.

وكذلك بقية الأسماء كل اسمٍ هو نفس صاحبه المضاد لــه، فنفس الرحيم هو نفس الشديد، ونفس المانع هو نفس المعطي، ونفس النافع هو نفس الضار، ونفس الآخر هــو نفس الأول، ونفس الباطن هو نفس الظاهر، ولا يبقى للحوادث عنده وصف؛ لأنهـــا لم تكن حتى توصف، بل إنما هي مظاهر لأوصافه تعالى، فحينئذٍ إن لم يأخذ سفينة الشريعة لهذا البحر يغرق إغراقًا لا نجاة منه، فإذا ركب في سفينة الشرع أرته كل شيءٍ على ما هو عليه من الحق، فيشهد المُظهر والمَظهر وحالة الظهور من ذلك في هذا، ويحكم بأن نفــس المُظهر بصيغة اسم الفاعل ليست هي نفس المَظهر بصيغة اسم المفعول شــرعًا، وأمــا في الحقيقة فليس ثم بفتح المثلثة إلا الظاهر الباطن، وما ظهر به هو ما بطن به، وإلى هذا المعنى بل إلى بحر الصفات كله أشرت بقولي في قصيدتي: (**أصبحت لا بدَّ لي أن أنفث الصدرا**):

وانظر إلى وصفه ترى الصفات سوى   صفاته لن ترى نظــرًا لمــن نظــرا
وكيف يظهر وصف غــيره معــه   والغير مع وصفه في الحق مــا ظهــرا
وكيف وهو الذي في كثــرة أحــد   وظاهر بــاطن في كــل مــا كثــرا

إلى أن قلت:

لــه الآنيــة مــع هويــة قــدمًا   ولفظ أنت له عن كــل مــا ذكــرا

وقولهم: إن كل اسمٍ هو نفس صاحبه نعم، إلا أن ما كان منها من صفته بلا تعلــقٍ يكون أعم.

ولذلك قال ﷺ في الحديث الربَّاني: «**رحمتي سبغت**[1]» بالغين المعجمة «**غضــبي**» في بعض الروايات: أي وسعتها وتعدتها، وذلك لأن الرحمة صفة لا تعلق لها بفعلٍ ولا غيره، وأما الغضب فمتعلقه فعل العبد، وهنا أمورٌ تقصر عنــها العبــارات، ولا تنفــع فيهــا

(1) لم أقف عليه بلفظ: سبغت، وأما بلفظ سبقت فرواه البخاري (2700/6).

الإشارات؛ لأنها أرق من الشعر، وأدق من النظر، ولذلك هذا البحر صاحبه هو الفــرد الكامل، وهو الغوث الفاضل عليه يدور أمر الوجود، وهو خليفة الرب المعبــود؛ لأنــه صارت لــه الصفات الإلهية ذاتًا محضة، فأعطى كل رتبةٍ من مراتب الموجودات الإلهيــة والخلقية حقها؛ لتخلقه بالأخلاق الرحمانية، كما قال ﷺ: ((**تخلّقوا بالأخلاق الرحمانية**))، وفي رواية: ((**تخلّقوا بأخلاق الله**[1])).

وهنا نكتة لطيفة من بعض جوامع كلمه ﷺ وهي قوله:

(بالأخلاق الرحمانية)، ولم يقل بالجبارية ولا العظيمة ولا الكبريائية، قال بالرحمانية لما فيها من الشمول الغير متقيّد بشيءٍ، وتقدم أن الأصل في الصفات هو (الرحمن)، كما أن الأصل في الأسماء هو (الله).

واعلم أن اسمه (الرحمان) على وزن (فعلان)، وهو يكون في اللغة لقــوة اتِّصــاف المتصف به وظهوره عليه، ولذا وسعت رحمته كل شيءٍ.

واعلم أيضًا أن هذا الاسم تحته جميع الأسماء الإلهية النفسية وهي سبعة:

الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام.

فأحرفه سبعة: الألف وهي الحياة، ألا ترى إلى سريان حياة الله في جميــع الأشــياء، فكانت قائمة به، وكذلك الألف سار بنفسه في جميع الأحرف حتى أن ما ثم حــرف إلا والألف موجودة فيه لفظًا وكتابةً، فالباء ونحوه منه ألف مبسوطة، والجيم ونحــوه ألــف معوجة الطرفين، وكذلك البواقي، وأما لفظًا فالحرف إذا بسطته: أي كتبت حروفه مفرَّقة وجدت الألف من بسائطه، أو من بسائط بسائطه، ولا سبيل إلى أن تفقده مــن هــذين الوجهين، فالباء مثلاً إذا بسطته قلت: باء فظهرت الألف، والجيم مثلاً إذا بسطته قلــت: جيم ياء ميم، والياء توجد فيها الألف والميم كذلك، وجميع الأحرف على هذا المثــال، فكان حرف (الألف) مظهر الحياة الرحمانية السارية في الموجودات، و(اللام) مظهر العلم، فمحل قائمة اللام علمه بنفسه، ومحل تعريفه علمه بالمخلوقات، و(الراء) مظهر القــدرة المبرزة من كون العدم إلى ظهور الوجود، فترى ما كان يعلم، وتوجد ما كــان يعــدم، و(الحاء) مظهر الإرادة، ومحلها غيب الغيب، ألا ترى إلى حرف الحاء كيف هو من آخر

(1) ذكره المناوي في التعاريف (216/1)، (564/1).

الحلق إلى ما يلي الصدر، والإرادة الإلهية كذلك مجهولة في نفس الله، فلا يعلم ولا يدري ماذا يريد فيقضى به، فالإرادة غيب محض، و(الميم) مظهر السمع، ألا تراه شفويًّا من ظاهر الفم؛ إذ لا يسمع إلا ما يُقال وما قيل، فهو ظاهرٌ سواء كان القول لفظيًّا أو حاليًا، فدائرة رأس الميم المشابهة لها الهوية محل سماعه كلامه؛ لأن الدائرة يعود آخرها إلى المحل الذي ابتدأت منه وكلامه فمنه ابتدأ وإليه يعود.

وأما تعريفه الميم فمحل سماعه لكلام الموجودات حاليًا كان أو مقاليًا، وأما الألف التي بين الميم والنون فمظهر البصر، وله من الأعداد الواحد، وهو إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يرى إلا بذاته، وكان الألف مسقطًا في الكتابة، ومثبتًا في اللفظ، فسقوطه إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يرى المخلوقات إلا من نفسه، فليست بغير له، وإثباته في اللفظ، فإشارة إلى تمييز الحق بذاته في ذاته عن المخلوقات، وتقدسه وتعاليه عن أوصافهم وما هم عليه من الذلة والنقص.

وأما النون فهو مظهر لكلامه سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ [القلم:1]، وكناية عن اللوح المحفوظ، فهو كتاب الله الذي قال فيه: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام:38]، وكتابه كلامه، فانظر إلى هذا البعض من بدائع جوامع كلمه ﷺ[1].

---

(1) فائدة جليلة لسيدنا الشعراني عند كلامه على الكامل: فقلت له ﷺ: فإذًا الصورة الرحمانية مقسمةٌ بالوجود. فقال: نعم، ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:53]، ومرجع جميع الأسماء والصفات إلى جمعية الاسم الله، فافهم.

فقلت له: فإذًا الإنسان ظلُّ الله؛ لأنه أول منطبعٍ فيها. فقال ﷺ: نعم، فكل موجودٍ ما عدا الإنسان مخلوقٌ من نورٍ، وهو السعة الفاضلة من المرآة، وأما لإنسان فمخلوقٌ من ظلمةٍ، وهي ظلمة الهوية، والظلمة هي الظل، فالمتمَيز من نورها منها، والمميز هو صورتها المختصرة منها، والمنطبع هو الإنسان الكامل.

فقلت له: فإذا وصلَ العارفُ إلى غاية فنائِهِ في الهوية واتصف بأوصاف الله تعالى صارت الأشياء عنده واحدةً في حال الوصول، فإذا دام هذا الفناء أخذَ العارف في التحول في المظاهر، كما أن الله تعالى له التحوُّل دائمًا، فيكون تحوُّل العارف حينئذٍ هو تحول الله؛ لأن العارف ليس له حقيقةٌ منفردةٌ من الهوية؛ لخلعة التقييد، ولبسة الإطلاق، والتحول للهوية؛ لأنها اسم لذات الله تعالى. فقلت له: فإذًا الكامل مجموع العالم. فقال: نعم، ومن أدرك الكثرة في العالم فليس بكاملٍ؛ إنما الكامل من يشهد الواحد كثيرًا والكثير واحدًا في آنٍ واحدٍ بإدراكٍ واحدٍ.

=

=

فقلت له: هذا جمعٌ بين النقيضين: أعني ما هو محالٌ في العقل من غير تأويلٍ ولا تغييرٍ مع الشروط التي يتوقف عليها إثبات التناقض، وذلك لأن طور الولاية يُخالفُ ما تألفه العلماء الحاكمون على الأمور بمقتضى عقولهم، فالكامل لا يَرى في حال كشفه ويقظته إلا واحدًا، والتعددات كلها عنده معدومةٌ، ففي اليقظة يدرك العدم المقيد، وفي حال الكشف يدرك العدم المطلق؛ إذ العدم المقيد هو الفناء مع الثبوت، والعدم المطلق هو فناء الفناء الذي هو بقاء الأحدية، فَعُلِمَ أنه ما دام العارف يدرك الكثرة لم يبلغ مرتبة الكمال؛ لأنه يعتقد حينئذٍ أنه واحدٌ يشبه الجملة؛ إذ هم متشابهون؛ فافهم.

فقلت له: فإذًا الكامل منــزَّهٌ عن أن يكون متقلِّدًا أو صاحب دليلٍ. فقال: نعم؛ لأن المقلد غير مطلعٍ وصاحب الدليل محكومٌ على عقله، وإن كان عقله حاكمٌ عليه من غيرِ هذا الوجه.

فقلت له: فَلِمَ سُمِّيَ الكامل خليفةً؟ فقال: لأن الحق تعالى وَكَّلَ إليه الأمر ظاهرًا، وباطنًا، أما في الظاهر: فبإطلاق لفظ الخلافة عليه، وأما في الباطن: فلكونه جُعِلَ علةً للخلق، وإن كان الله تعالى هو الفاعل لهما فكما أن الإنسان فرع آدم كذلك الخلق في عصر الواحد الكامل فرعه، والحقيقة تأبى الثنوية في العالم عند كل من فني في الله؛ لأنه لا يحيط بالأسماء والصفات إلا بعد الفناء.

فقلت له: فمتى يكون العارف مُسَمًّى بالأسماء الإلهية كلها؟

قال: إذا فني في ذات المُسَمَّى، وهو مركبٌ من أربع عناصر: نظير أسماء الوجود، التي هي الأول والآخر والظاهر والباطن، فالأول: نسبته من الإنسان نسبة الماء، والظاهر: نسبته منه النار، والباطن: نسبته منه الهوى؛ إذ لا جسم له مدركٌ بالعين للناظرين، والآخر: نسبته من الإنسان التراب؛ لأن له حقيقة الثبوت، وهذه الأسماء الأربعة في الحقيقة أجزاء العارف؛ لأنه مخلوقٌ على صورة الحق مختصرٌ منها بعد كونها.

فقلت له: فما حقيقة خلافة الكامل من أعيان الأسماء؟

فقال: هو خليفةٌ للاسم الرحمن المستوي على العرش، لأجل الانطباع في مرآة الوجود، فهو على صورتها، لا مختصر صورته منها؛ لبراءة المرآة عن الثنوية؛ ولهذا الذي ذكرناه من الخلافة كان من شرط الكامل أن يكون رؤوفًا رحيمًا بأجزائه المتكثرة، وينتفي عنه صفة الانتقام، يعني العمل بها؛ لأنها من جملة صفاته، لكن أحد لا ينتقم من نفسه، ومن هنا ترك الفقراءالصادقون إذاية من آذاهم، لأنهم متى فعلوا ذلك عادوا على أنفسهم بالأذية؛ إذ المُؤذي جزءٌ منهم، وهو الجزء المُتصِف بالجهل، فهم إذًا الجزء المذكور، من حيث جهله، لا يعلم أن الحياة واحدةٌ، ولا أن المجموع واحدٌ.

فقلت له: فعلى هذا التقرير يجمعُ الله تعالى للكامل مجموع الوجود في الحضرات الأربع التي هي الأول والآخر والظاهر والباطن. فقال: نعم، تحضر له، فيشهدها متبرئًا عن مجموعها، وعن واحدٍ منها. فقلت: كيف؟ فقال: يشهد نفسَهُ مجرَّدًا عن الأسماء والصفات، فمن الحضرة الأولية قبل الوجود الظاهر يُدرِكُ فيها أخذ العهود يوم: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ [الأعراف:172]، ويسمع قول السامعين: (بلى) وانظر: الميزان الذرية (ص99) بتحقيقنا.

=

واعلم أن أقرب الأوصاف إلى الحياة العلم، كما أن أقرب الأوصاف إلى الذات الحياة، فإذا استغرق العبد في بحر الصفات صار يتصرف بكل صفةٍ في مظهرها، وصار ينطق بالعبارات التي إن لم تجد من يفهمها حُكم على صاحبها بما لا ينبغي أن يحكم عليه به، وليس ينجيه إلا سفينة الشرع كما تقدَّم، وإلى هذه البحور الثلاثة أشرت بقولي في قصيدتي: ((**ألا عم صباحًا**)):

فلله بحر الإذن بحر لأمره وبحر الصفات الحسن عنها تنسما

واعلم أنهم يقولون بحر الصفات، وهي في الحقيقة بحورٌ لا يعلم عددها إلا الله؛ لأنهم يتكلمون على الصفات من حيث الاستعمال في العشرين الواجبة، ويجعلون لكل واحدةٍ منها بحرًا يخصها، وللمرء في كل واحدٍ منها حالاً يخصّه.

وحينئذٍ تبقى الأسماء كلها، بل كل معنى يصح منه وصف له تأثير يشاهد منه بحر لا يوصف، ولذلك صحَّ أن تندرج البحور كلها في هذا البحر؛ لأنه لا يتناهى إلا إذا تناهت معلومات الله تعالى، وكيف ذلك ونحن ما أوتينا من العلم إلا قليلاً، لكنه قليل من كثيرٍ، وأنت إذا نظرت في الكائنات وأجناس جميع المخلوقات، وتباينها في جميع الحالات من المائيات والجمادات والحركات والسكنات وجدت في كل أوصافها بحورًا متلاطمات الأمواج، ولا ترى سبلاً لما فيها من فجاج، ولذلك رأيت أني أصرف العنان عن هذا البحر بالقلم واللسان؛ لأني لو تتبعته لما أكملته، وبطلب بيانه في أشكاله زدته.

* * *

رابع البحور: ((بحر السر))

والأصل فيه: ﴿**يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**﴾ [طه:7]، والسر واحد الأسرار، وهو ما يُكتم، ومنه أسرَّ الحديث إذا أخفاه، وما من شيءٍ إلا وله سرٌّ، حتى السر فإنه بسره فيُقال: سر السر، بل وسر ذلك إلى ما لا يُدرك، بل إلى القدر الذي لا يعلمه إلا الله، وهو الذي ما وراءه إلا العدم، وتنكير أخفى للمبالغة في الخفاء: أي يعلم ما أسررته إلى غيرك، وشيئًا أخفى من ذلك، وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلاً، وما أسررته في نفسك وأخفى منه، وهو ما ستسره فيما سيأتي: أي ما يلقيه الله في قلبك من بعد، ولا تعلم أنك

=

ستحدّث به نفسك، وحاصل أمره في جميع أنواعه أن منه ما ينال، ومنه ما لا يناله إلا الخواص وخواصهم، وإلى ذلك أشرت بقولي:

سر ينال وسر لم ينل فأنل ... مما يُنال ومما لم ينل لتجل

واحذرْ تكون إذا أوتيت مقتنعًا ... بما يُنال أو الذي لم ينل فتزل

عند غيرك أو في نفسك، والمراد بالسر في هذا البحر أمران:

أحدهما: الحق؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الحجر:85]، والحق الذي ليس بباطلٍ: أي إلا خلقًا متلبسًا بالحق والحكمة لا باطلاً وعبثًا، ويُقال إلا بالحق: أي إلا مظهرًا لآيات الحق بالحق لأرباب الحق المكاشفين بصفات الحق، فإنه لا شعور للسموات والأرض وما بينهما من غير الإنسان، بأنها مظهر لآيات الحق، وإنما الشعور بذلك للإنسان الكامل.

كما قال: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران:190]، وهم الذين خلص لب أخلاقهم الربَّانية من قشر صفاتهم الإنسانية، فنظروا الأشياء كاملة بنسبتها إليه تعالى.

وذلك أن الحق تعالى وإن ظهر في مخلوقاته فإنما يظهر فيها بوصفه الذي يستحقه لنفسه، وذلك هو الكمال المطلق، فلا يلحق به شيء من نقائص المحدثات، وإن استند إليه شيء من نقائص المحدثات ظهر كماله في تلك النقائص، فارتفع حكم النقص عنها، فكانت كاملة باستنادها إليه، فلا يكون من الكامل إلا ما هو كامل، ولا يستند إلى الكامل إلا ما لا يلحق به النقص، وفي ذلك قال بعضهم:

يكمل نقصان القبيح جماله ... إذا لاح فيه فهو للقبح رافع

ويرفع مقدار الوضيع جلاله ... فما ثم نقصان ولا ثم واضع

ثانيهما: السر عبارة عن السبب الحامل لكل شيءٍ على ما اعتنى به من عبادةٍ ومحبَّةٍ وخوفٍ وتعظيمٍ ونحو ذلك، فصاحب كل عبادةٍ لو لم يشاهد السر في معبوده لما عبده، ولو لم أخشَ من تصويب أهل الضلال لأبرزت بعض ما هم مشاهدون فيما يعبدون، لكن كل عبادةٍ ليست لله فصاحبها في خسرٍ، وتلاه صاحب المحبَّة لو لم يشاهد في محبوبه سرًّا

يلتذ به منه لما أحبه، وذلك أن السر في المحبَّة عبادة إلهية؛ إذ سببه التعشق الذاتي الذي هو صادرٌ من المؤالفة الرحمانية.

كما في الحديث: ((**إنَّ لله مائة رحمة، تسعة وتسعين جعلها لعباده المؤمنين في الآخرة**)).

ورُوي: ((**في الجنة**))، ((**ورحمة وضعها في الأرض فبها يتراحمون حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**[1])).

فهذه الرحمة ذاتية، والمشتاق إليها من العبد جميع حواسه؛ لأن الحواس هي المظهر الإلهي في العبد، كما في الحديث الربَّاني: ((**كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا**[2])).

لأنها المتولية للمس، ومؤيدًا: أي في القوى كلها، والشخص لا يحب إلا ما يجد فيه اللذة والسرور، ولا يخاف إلا مما يجد فيه الألم والحزن، والحب ليس إلا للمطعومات بالحس: أي ملائمة الطبع، والمبصورات بالحس، والمشمومات به، والمسموعات به، والملموسات به، والمعقولات به، ولم يخرج عن هؤلاء شيء، وهؤلاء كلهم روحانيون، ولذلك إن فقدت الروح فقدوا، فالموجود من المطعومات الطعم باللمس، ومن المبصورات بالبصر اللون، وبالشم الرائحة، وبالسمع الصوت، وباللمس الوجدان، وبالإدراك العقلي المعاني، فبهؤلاء كلهم رحمانية لطيفة، يدركها أهل الله، فما تعشقت الروحانية إلا بالروحانية، وتعشقهم لهم عبادة للمظهر الرحماني الذي وُضع في الأرض.

واعلم أنه لولا الملائمة الطبيعية لما وجد حب في الجسمانية ولا الروحانية، وليس في الوجود شيء إلا وهو ملائمٌ لشيءٍ، حتى العذرة فإنها ملائمة للجعل، ولا يبغي بها بدلاً، وهي عنده ملائم طبعه من المحاسن، وحتى النار فإنها ملائمة حسنة عند السمندل الطير، المعروف الكثير في أرض الهند، فإنه لو تغيَّر لونه أو مرض وأدخل النار زال ما به من الوسخ أو الضرر، فبهذا المعنى والسر صار كل له بالملائم طبعه، والحب السر فيه طلب الزيادة؛ لأن العزَّة لا توجد إلا فيما يزيد الشخص، والألم لا يوجد إلا فيما ينقصه، وتحت ذلك من السر كثير لا يفشى، وفي عباراته لا يمشي، ولا تظن أن الله تبارك وتعالى خلق

---

(1) رواه مسلم (2108/4)، والترمذي (549/5)، وأحمد (434/2)، وابن ماجه (1435/2)، والطبراني في الكبير (417/19)، وابن أبي شيبة في المصنف (61/7).
(2) رواه أبو نعيم في الحلية (319/8).

شيئًا إلا وفيه سر النفع والضر، كائنًا ما كان، و لم ينكر أحدهما شخص في شيءٍ إلا ابتلاه الله بما يصدق له ذلك.

كما حُكي أن شخصًا قال: أي فائدة في الخنافيس! لا علم لي بفائدةٍ في الخنفساء! ولا تظهر لي، فكان من قدر الله أن ابتلاه الله ببليةٍ عجز عنها الأطباء، إلى أن تفضَّل الله عليه بحكيمٍ قال له: دواؤها في رماد الخنفساء، فصار يطلب الخنافس في البيوت والبراري، إلى أن شفاه الله، فصار يقول: ما خلق الله شيئًا عبثًا، وما من شيءٍ إلا وفيه النفع، وذلك لسريان صفات الله، وتجليها في الأشياء بالكلية، ولذلك قيل: إفشاء سر بالربوبية كفر.

والحاصل أنك لا تجد مرغوبًا فيه ولا مرهوبًا منه ولا معظمًا ولا غير ذلك إلا وله سرٌّ أودعه الله فيه، فعل له ذلك به، ولو تتبعت تفاصيل ذلك لاحتجت إلى مجلداتٍ، وهذا البحر إذا تفجَّر على الشخص لم يرَ التفاوت بين المخلوقات أصلاً في شيءٍ.

قال تعالى: ﴿**مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ**﴾ [الملك:3] إشارة إلى شمول رحمته الرحمانية الواسعة كل شيءٍ؛ لأن الموجودات كلها علويَّة كانت أو سفليَّة، نورانيَّة كانت أو ظلمانيَّة، روحانيَّة كانت أو جسمانيَّة، خلقت من نور الرحمن ورحمته من غير تفاوتٍ في الخلق وأصل الرزق.

وقال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:44]: أي ينزهه عن مشارك في خلقه حال كونه متلبسًا بحمده على نعمة الإيجاد والتربية، بلسان الحال والمقال، أو لسان الحال لا محالة، ﴿**وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾، وإلى بعض هذا المعنى أشرت بقولي:

لا فرق بين رجلٍ وشجرٍ ... لا فرق بين امرأةٍ وحجرٍ

كل بواحدية قد يشهد ... لربنا كذا له التفرد

ويطرأ الصوت من الجميع ... والصمت شاهد بذا البديع

لاكنما الشرع بتفريق حكم ... والحكم بالفرق وجمع للحكم

وقولي أيضًا:

لا فرق بيني وبين العود ... وبين بقرة بذا الموجود

لاكنما به الإله حكما ... به حكمنا فاغفر ربي وارحما

فعلى المرء أن يحكم بما حكم به الشرع من إيجادهم وتسبيحهم، ومن لم يركب لهذا البحر في سفينة الشرع غرق في حقيقة شهود عدم التفاوت، وناله الموت أو التماوت، وإذا ركب في سفينة الشريعة حكم على الأشياء ظاهرًا بما حكم عليها به ربها، ونظرها باطنًا بذلك فنجا و لم يخف لججًا.

واعلم أنه ليس في الوجود ذرة إلا وهي منفردة بسرٍّ إلهيٍّ لم يكن لغيرها، وإذا شاهد الولي ذلك صار عنده كل شيءٍ محبوبًا ومرغوبًا، وينشد بلسان الحال فيه ولو كان مرهوبًا:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

وفي نسخة: (أطوف)، ولهذا السر قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:3]، ولذلك رأيت هذا من الكلام على هذا البحر قدرًا.

***

خامس البحور: «بحر العقل»:

وأصله في القرآن كثير، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:4]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:103].

وكقوله ﷺ: «**أول ما خلق الله العقل**[1]».

ورُوي أن الله تعالى لما خلق العقل قال له: «**أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال له: وعزتي وجلالي لا أجعلك إلا فيما أُحب**[2]».

ولما كان العقل أول ما خلق الله صار هو أقرب الخلائق إلى الحقائق.

[أنواع العقل]:

واعلم أن العقل ثلاثة أنواع:

العقل الأول، والعقل الكلي، وعقل المعاش.

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (318/7).
(2) رواه أبو نعيم في الحلية (318/7) بنحوه.

فالعقل الأول:هو نور علم إلهي، ظهر في أول تنـــزلاته التعينية الخلقية، وإن شـــئت قلت أول تفصيل الإجمال الإلهي؛ لأنه فهم ما في الإقبال والإدبار من الظهور والإســـتار، فالإقبال بالطاعة والإدبار عن المعصية، وإن شئت قلت: والإدبار بالمعصية، ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ [النساء:78]، ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً**﴾ [الكهف:17].

والعقل الكلي: هو القسطاس المستقيم، فهو ميزان العدل، وهو العاقلة: أي المدركة النورية التي ظهر بها صور العلوم المودعة في العقل الأول.

وعقل المعاش: هو النور الموزون بالقانون الفكري، فهو لا يُدرك إلا بآلة الفكـــر، ثم إدراكه بوجهٍ من وجوه العقل الكلي فقط، لا طريق له إلى العقل الأول؛ لأن العقل الأول منـــزهٌ عن القيد بالقياس، وعن الحصر بالقسطاس، بل هو محل صدور الوحي القدسي إلى مركز الروح النفسي، والعقل الكلي هو الميزان العدل للأمر الفصلي، وهو منـــزهٌ عـــن الحصر لقانون دون غيره، بل وزنه للأشياء على كل معيارٍ، وليس لعقل المعاش إلا معيار واحد وهو الفكر، وليست له إلا كفة واحدة وهي العادة، وليس له إلا طرف واحد وهو المعلوم، وليس له إلا شوكة واحدة وهي الطبيعة، بخلاف العقل الكلي؛ فإن لـــه كفتين: إحداهما: الحكمة، والثانية: القدرة، وله طرفان: أحدهما: الاقتضاءات الإلهيـــة، والثـــاني: القوابل الطبيعية، وله شوكتان: إحداهما: الإرادات الإلهية، والثانية: المقتضيات الخلقية، وله معايير شتى، ومن جملة معاييره أن لا معيار، ولهذا كان العقل الكلـــي هـــو القســـطاس المستقيم؛ لأنه لا يحيف ولا يظلم، ولا يفوته شيء، بخلاف عقل المعاش فإنه قـــد يحيـــف ويفوته أشياء كثيرة؛ لأنه على كفةٍ واحدةٍ وطرفٍ واحدٍ، فقياس عقل المعـــاش لا علـــى التصحيح بل على سبيل الحرص.

وقد قال تعالى: ﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ**﴾ [الذاريات:10]، وهم الذين يزنون الأمور الإلهية بعقولهم على ميزان الحس في العادة الخلقية فيبخسون لتبديلها، والعقل الكلي هو المطبوع الذي إذا طبع نفع، وإلا فالنفع ارتفع، كما قيل:

العقل عقلان فمطبوعٌ ومســـموعٌ ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع

ومتى انطبع العقل الكلي وتفجَّرت عليه أنهار العقل الأول صار بحرًا لصاحبه، ونظر به الأشياء كلها معقولة عاقلة مفضولة فاضلة.

وعقل للإسلام والإيمان والإحسان معاني من الظاهر والباطن، لا تُفشى أسرارها، ولا تُذاع أخبارها، ويعقل لكل عددٍ معنى ليس هو في غيره، فإن شاء سقي من كل عددٍ معنى عدد غيره على وجهٍ لا يمكن شرحه، وقفله لا يمكن فتحه، ويعقل معنى البدء والعود، والسر في القدم والعود، فإذا وقع الشخص في هذا الوصف من هذا البحر لا ينجيه إلا الركوب في سفينة الشريعة، ويعلم أنه هو بنفسه معقول فوق عقله لجنسه، بل لا سبيل له إلى معرفةٍ من الله تعالى في قدسه، ولا إلى معرفة جميع أسراره في خلقه، وما له من السر في ظلمته وأنواره يعلم أنه لا بدَّ للعقل من عقلٍ، كما قلت:

أبى الله يدرى بالعقول وإنه لأعظم من عقل ومن كان ذا عقلٍ

ولو كان يدري بالعقول دري النبي ولكنه لا بدَّ للعقل من عقلٍ

عليه صلاة الله ثم سلامه كما كان في العرفان فردًا بلا شكلٍ

والعقل هو الذي به قوام الإنسان: أي عماده الذي يقوم به.

كما قال ﷺ: «**قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له**[1]».

فبسبب ذلك رتبة كل إنسانٍ في الدين على قدر رتبة عقله، ولو كان لغيره مزية في غير ذلك من الشكل.

ومن استغرقه بحر العقل استغنى به عن مشاهدة الأرواح، وما تأتي به من العلوم للأشباح، ولذلك قال ﷺ: «**كاد العقل أن يكون وحيًا** [2]».

وما منعه من أن يكون وحيًا إلا أن الوحي يأتي إلى غيره، والعقل مخبرًا لنفسه من أصل خلقته، وسُمِّي العقل عقلاً لأنه يعقل: أي يمنع صاحبه عن المكاره، ولا عقل أعقل من إدراك قدم الله تعالى؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما لا بدء له.

ولذلك قلت:

أسأل عن أمرٍ إذا به سبر عقل له عقل حيث يختبر

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (157/4).

(2) أحاديث العقل حكم أهل الجرح والتعديل بضعفها، ولا شك في صحة بعضها كشفًا عند السادة الصوفية قدست أسرارهم.

وهــو إذا لم يعقلنــه فــلا   عقل يُسمَّى عنـد مـن قـد عقـلا

ثم أجبت نفسي بقولي غفر الله لي:

هذا سـؤال سـبر غـور العقـل   بـه كمـا رأيتـه في النقـل

وإنـني أراه عنـد العقـلا   قـدم ربنـا الـذي جـلَّ عـلا

وذلك أن العقل لا يُدرك إلا ما شارك في خلقته، ومن تفطن وجد العقل كما كان شيخنا ﷺ وأرضاه يقول: إنه هو السبب والمسبب له، فافهم الإشارات، ولا تقف مع بين العبارات.

* * *

سادس البحور: بحر الروح[1]

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29]، وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة:9].

اعلم أن هذه الإضافة إضافة تشريف وإظهار بأنه خلقٌ عجيبٌ ومخلوق شريف، وإن له شأنًا لأنه جعل فيه الشيء الذي اختص تعالى به، ولذلك أضافه إليه فصار بسبب ذلك حيًّا حساسًا بعد أن كان جمادًا.

والروح اختلف العلماء هل يجوز الخوض فيها أم لا، فذهب قوم إلى أن الإمساك عنها أولى، وذهب آخرون إلى الكلام فيها، والمتكلمون فيها اختلفوا هل هي عرض أو جسم لطيف يحل بالأجرام، كحلول الماء في العود الأخضر، والحكماء يقولون هي اللطيفة المدبرة للجسد حيوانًا كان أو غيره، وهذه اللطيفة مختلفون فيها، فمنهم من قال: إنها الريح فهي عندهم في الحيوان روح، وفي الهوى ريح، فالأولى تحرك الحيوانات، والأخرى تحرك الجمادات، ومنهم من قال: إنها ماء الجسد المشتبك فيه اشتباك ماء العود الأخضر به، وهذا الماء عند الفلاسفة هو الدم، وعند غيرهم ما صحَّ منه التركيب البدني؛ لأنهم إذا ذهب ذهب تركيب البدن، وهذه الأقوال وإن كانت حقًّا فمن وراء حجاب عن

(1) قال الإمام الجنيد قدس سره: الروح شيءٌ استأثر الله بعلمه، ولم يُطلع عليه أحدًا من خلقه، ولا يجوز العبارة عنه بأكثر من موجودٍ؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85]. وانظر: كتابنا الإمام الجنيد (ص150).

حقيقتها، وحقيقتها هي التي أجاب عنها تعالى بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾: أي اليهود ﴿عَنِ الرُّوحِ﴾ الذي هو روح البدن الإنساني، ومبدأ حياته سألوه عن حقيقته، فأجيبوا بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85]: أي من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر، فالأمر واحد الأمور بمعنى الشأن والإضافة؛ للاختصاص العلمي لا الإيجادي؛ لاشتراك الكل فيه، والمعنى أن الروح ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهرين البدنيين الذين لا يتجاوز إدراكهم عن الحس والمحسوس بالتشبيه ببعض ما شعروا به، والتوصيف بل من عالم الأمر الإبداع الذي هو عالم الذوات المجرَّدة عن الهيولي والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين، فلا يمكنهم إدراكه أيها المحجوبون بالكون؛ لقصور إدراككم وعلمكم، ولذلك قيل: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**[1]» إذ لا يمكن معرفتها حق المعرفة، وأقاويل العلماء والحكماء والصوفية كثيرة في ماهية الروح، وأولى الأقاويل أن يوكل علمه إلى الله ﷻ وهو قول أهل السنة.

قال عبد الله بن بريده: إن الله لم يطلع على الروح ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلاً بدليل قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الذي استأثر به؛ لأنها من قول: (كن) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن﴾ [النحل:40].

واعلم أن الروح في الحقيقة روحان: روح القدس، وروح الأكوان، فروح القدس هو روح الأرواح، وهو المنـزه عن الدخول تحت حيطة (كن)، فلا يجوز أن يُقال فيه إنه مخلوقٌ؛ لأنه وجه خاصة من وجوه الحق، قام الوجود بذلك الوجه، فهو روحٌ لا كالأرواح؛ لأنه روح الله تعالى، وهو المنفوخ فيه من آدم.

وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:72]، فروح آدم مخلوق وروح الله ليس بمخلوقٍ، فهو روح القدس: أي أنه هو الروح المقدَّس عن النقائص الكينونية، وذلك الروح هو المعبَّر عنه بالوجه الإلهي في المخلوقات.

وهو المعبَّر عنه في الآية بقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115]، يعني هذا الروح المقدس الذي أقام الله به الوجود الكوني بوحدانيته، تولوا بأجسامكم في المحسوسات، أو بأفكاركم بالمعقولات.

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (208/10)، وذكره البغوي في التفسير (152/1).

فإن الروح المقدس متعين بكمالٍ فيه؛ لأنه عبارة عن الوجه الإلهي القائم بـالوجود، فذلك الوجه في كل شيءٍ هو روح الله، وروح الشيء نفسه، فالوجود قائم بـنفس الله، ونفسه ذاته، فتعالى الله عن المثل والشبيه، أو أن يدركه بعقله نبيه.

وروح الأكوان هو أن كل شيءٍ من المحسوسات لـه روح مخلوق قام به صـورته، والروح لتلك الصورة كالمعنى للفظ لا يخلو منه كون ما، إلا إذا لم يـدخل في كينونـة (كن)، وتلك الروح كائنة من روح القدس، لا يصح كونها من غيره، ولا يصح كونها منه كما قيل:

رق الزجاجـة ورقـت الخمـر فتشـابها وتشـاكل الأمـر

فكأنها خمـر ولا قـدح وكأنما قـدح ولا خمـر

فافهم ثم تتعلم، وهو من أغرب ما يعلم أن الروح في دخولها في الجسد وحلولها فيه لا تفارق مكانها، ولكنها لما نظرت إلى الجسد حلَّت فيه؛ لأن من عادة الأرواح أن تحـل فيما نظرت فيه من غير مفارقةٍ لمركبها، وهذا مما لا يُفهم إلا بالكشف الربَّاني، ولكـني أمثله لك ليقرب من ذهنك يسيرًا، فهذا الحلول كحلول وجهك في المرآة من غير مفارقةٍ منك لموضعك وهو مجرد مثل.

وأما التفرقة فهي حاصلة من كل وجهٍ غير ذلك الحلول، وشهود تلك الروح القائمة بها الأكوان قدسًا وكونًا هو البحر، الذي إذا شاهده الولي شاهد منه الأنبياء والأوليـاء والملائكة، وغير ذلك من كل روحٍ قائمةٍ في جسدها شهودًا لا تكون فيه تفرقـة بـين كبيرها وصغيرها، وكثيرها وقليلها، ولا ينجيه من الغرق فيه إلا سفينة الشريعة؛ لأنها ترد له كل شيءٍ إلا بما هو له ظاهرًا وباطنًا، فيحكم للكل بما حكم به ربه من وجود ظـاهر وعدم باطن.

* * *

سابع البحور: «بحر القلب»

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ [ق:37]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:179].

واعلم وفَّقك الله أن القلب هو النور الأزلي والسر العلي، المنــزَّل في عين الأكــوان لينظر الله تعالى به إلى الإنسان، قال ﷺ: ((**إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأمــوالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم**[1])).

وفي الحديث أن الاعتناء بإصلاح القلب مقدمٌ على الأعمال بالجوارح، وسُمِّي هــذا النور بالقلب لمعانٍ:

منها: أنه لبابة المخلوقات، وزبدة الموجودات جميعها أعاليها وأدانيها، فسُمِّي بهــذا الاسم لأن قلب الشيء خلاصته وزبدته.

ومنها: أنه سريع التقلب، وذلك أنه نقطة يدور عليها محيط الأسماء والصفات، فــإذا قابلت اسمًا أو صفةً بشرط المواجهة انطبعت بحكم ذلك الاسم والصفة.

وقولهم: بشرط المواجهة تقييد؛ لأن القلب في نفسه لا يزال مقابلاً بالذات لجميع أسماء الله تعالى وصفاته، لكن يقابله في التوجه شيء ثان، وهو أن يكون القلب متوجهًا لقبول أثر ذلك الشيء في نفسه، فينطبع فيه فيكون الحكم عليه لذلك الاسم.

واعلم أن القلب وجه كله ولا له قفا، لكن موضع الهم منه يُسمَّى وجهًا، وموضــع الفراغ منه يُسمَّى قفا، فافهم.

واعلم أيضًا أن الهم لا يكون له من القلب جهة مخصوصة، بل يكون تارة إلى فــوق، وقد يكون تارة إلى تحت، وعن اليمين وعن الشمال على قدر صاحب ذلك القدر.

فإن من الناس من يكون همه أبدًا إلى فوق كالعارفين، ومنهم من يكون همه أبــدًا إلى تحت كبعض أهل الدنيا، ومنهم من يكون همه أبدًا إلى اليمين كبعض العباد، ومن النــاس من يكون همه أبدًا إلى الشمال وهو موضع النفس؛ فإنها محلها في الضلع الأيسر، وأكثــر البطالين لا يكون لهم هم إلا نفسه.

وأما المحققون فلا هم لهم، فليس لقلوبهم موضــع يُسمَّى قفا، بل يقابلون بالكليــة كلية الأسماء والصفات، فليس يختص وقتهم باسمٍ دون اسمٍ غيره؛ لأنهم ذاتيون، فهم مع الحق بالذات لا بالأسماء والصفات فافهم.

---

(1) رواه مسلم (1986/4)، وأحمد (284/2)، (539/2)، وابن ماجه (1388/2)، وابن حبان في الصحيح (119/2)، والبيهقي في الشعب (328/7)، وأبو نعيم في الحلية (124/7).

ومنها: أي المعاني التي يُسمَّى القلب من أجلها قلبًا: أن الأسماء والصفات له، فالقوالب يفرغ نوره فيها وانصبابه إليها.

قال جامعه عفا الله عنه: أو نورها فيه وانصبابها إليها، فلذلك التفريغ قد يُسمَّى قلبًا من قولهم: قلبت الفضة في القالب قلبًا، وهو من وضع المصدر اسمًا للمفعول.

ومنها: أنه مقلوب المحدثات بمعنى عكسها، يعني نوره قديم أزلي.

ومنها: أنه هو الذي يتقلب إلى المحل الأصلي الإلهي الذي بدأ منه.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق:37]: أي انقلاب إلى الحق، فهو صرف وجه الهمة من العدوة الدنيا وهي الظواهر إلى العدوة القصوى وهي الحقائق وبواطن الأمور.

ومنها: أنه يكون خلقًا فينقلب حقًّا، يعني أنه مشهده كان خلقيًّا فيصير مشهده حقيًّا، وإلا فالخلق لا يصير حقًّا؛ لأن الحق حق، والخلق خلق أبدًا، والحقائق لا تتبدل، لكن من كان أصله من شيءٍ رجع إليه، قال تعالى: ﴿**وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ**﴾ [العنكبوت:10].

ومنها: أنه يقلب الأمور كيف شاء.

ومنها: أن القلب لحقائق الوجود كالمرآة للوجه فهو عكسه، يعني أنه كما كان العالم سريع التغيير في كل نفسٍ انطبع عكسه في القلب، فهو كذلك سريع التغير.

واعلم أن القلب يعبر به عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة والعقل وغير ذلك.

[أنواع القلوب]

والقلوب أربعة: يائسٌ وهو قلب الكافر، وقلبٌ مقفولٌ وهو قلب المنافق، وقلبٌ مطمئنٌ وهو قلب المؤمن، وقلبٌ سليمٌ من تعلقات الكونين وهو قلب المحبِّين المحبوبين، الذي هو مرآة صفات جمال الله وجلاله.

كما قال: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي لكن يسعني قلب عبدي المؤمن**[1]».

(1) رواه الديلمي في الفردوس (174/3) بنحوه، وهو حديث مشهور عند القوم معروف بصحته كشفًا.

واعلم أن هذا الوسع على ثلاثة أنواع كلها سائغة في القلب:

النوع الأول:

وسع العلم وذلك هو المعرفة بالله، فلا شيء في الوجود يعقل آثار الحق ويعرف ما يستحقه كما ينبغي إلا القلب.

لأن كل شيءٍ سواه إنما يعرف ربه من وجهٍ دون وجه، وليس لشيءٍ غير القلب أن يعرف الله من كلِّ الوجوه فهذا وسعٌ.

والنوع الثاني:

هو وسع المشاهدة، وذلك هو الكشف الذي يطلع القلب به على محاسن جمال الله تعالى، فيذوق لذة أسمائه وصفاته بعد أن يشهدها، فلا شيء من المخلوقات يذوق ما لله تعالى إلا القلب، فإنه إذا تعقَّل مثلاً علم الله بالموجودات، وصار في فلك هذه الصفة ذاق لذتها، وعلم بمكانة هذه الصفة من الله تعالى، ثم في القدرة كذلك، ثم في جميع أوصاف الله تعالى وأسمائه؛ فإنه يتسع لذلك، ويذوقه كما يذوق مثلاً معرفة غيره وقدرة غيره لسيره في أفلاكها، وهذا وسعٌ ثانٍ وهو للعارفين.

والنوع الثالث:

وسع الخلافة، وهو التحقيق بأسمائه وصفاته حتى أنه يرى ذاته ذاته، فتكون هوية الحق عين هوية العبد، وآنيته عين آنيته، واسمه اسمه، وصفته صفته، وذاته ذاته، فيتصرف في الوجود تصرف الخليفة في ملك المستخلف، وهذا وسع المحققين.

وهنا لطائف في كيفية هذا التحقيق، وأين محل كل اسمٍ منه من العارفين، ضربنا عنها واكتفينا بهذا القدر من التنبيه عليها؛ لئلا يفضي ذلك إلى إفشاء سر الربوبية الذي إفشاؤه كفر، وقد تقدَّم أن الحق حق، والخلق خلق أبدًا.

وهذا الوسع قد يُسمَّى وسع الاستيفاء، وإن لم يركب العارف هنا سفينة الشريعة غرق غرقًا لا ينجو منه أبدًا، وإذا ركب في سفينة الشريعة نجا نجاة تسرّه، وتريه كيفية بروز الشريعة من هذه الحقيقة، فيصير مطمئنًا ثابتًا في الشريعة على ما هي عليه من نباتها من الحقيقة، ومطمئنًا ثابتًا في باطنه في الحقيقة على ما هي عليه من وصولها في سفينة الشريعة أصلاً وفرعًا.

[مراتب القلوب]

وقال بعضهم: للقلوب مراتب:

فقلوب في قبضة الحق مأثورة، وقلوب والهة، وقلوب طائرة بالشوق إليه، وقلوب إلى ربها ناظرة، وقلوب صاحبت الأمالي في الله، وقلوب تبكي من الفراق وشدة الاشتياق، وقلوب ضاقت في دار الفناء، وقلوب خاطبها في سرها فزال عنها مرارة الأوجاع، وقلوب سارت إليه بهمتها، وقلوب صعدت إليه بعزائم صدقها، وقلوب تقدمت لخدمته في الخلوات، وقلوب شربت بكأس الوداد فاستوحشت من جميع العباد.

إلى غير ذلك من أنواع القلوب الذي لا يعلمه إلا علاَّم الغيوب، والقلب من الغيب المستأثر بعلم حقيقته، وليس إلا كما قيل فيه:

فلك الكمال وفيه شمس مشرق فوق المكان مكانة لا تغرب

ويكفيه من الشرف قوله في الحديث الربَّاني المتقدم: «**ولكن وسعني**»؛ لأنه وسع ربه الذي لم تسعه السموات والأرض، وقوله ﷺ: «**تفكر ساعة خير من عبادة الثقلين**[1]».

ومحل التفكر القلب، وليكن هذا آخر الكلام على هذا البحر؛ لأني لو تتبعت الكلام عليه لما أتممته في الدهر.

***

ثامن البحور: «بحر اللوح»

والأصل قوله تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ*فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾ [البروج: 21، 22]، واللوح عندهم عبارة عن نورٍ إلهيٍّ حقيٍّ، متجل في مشهدٍ خلقيٍّ انطبعت الموجودات فيه انطباعًا أصليًّا، والمقضي به المقدر في اللوح على نوعين: مقدر لا يمكن التغيير فيه ولا التبديل، ومقدر يمكن التغيير فيه والتبديل، فالذي لا يمكن التغيير فيه والتبديل هي الأمور التي اقتضتها الصفات الإلهية في العالم، فلا سبيل إلى عدم وجودها.

ولهذا المعنى قال ﷺ: «**جفَّ القلم بما هو كائن**[1]».: أي من هذا المعنى الذي لا يدخله محو.

---

(1) ذكره القرطبي في التفسير (314/4)، والعجلوني في كشف الخفا (370/1)، بنحوه.

وأما الأمور التي يمكن فيها التغيير فهي الأشياء التي اقتضتها قوابل العالم على سبيل قانون الحكمة المعتادة، فقد يجريها الحق تعالى على ذلك الترتيب، فيقع المقضي به في اللوح المحفوظ، وقد يجريها على حكم الاختراع الإلهي الذي على ما اقتضته قوابل العالم، فلا يقع المقضي به، ولا شك أن ما اقتضته قوابل العالم هو نفس مقتضى الصفات الإلهية، ولكن بينهما فرق أعني بين ما اقتضته قوابل العالم وبين ما اقتضته الصفات مطلقًا: أي من غير نظر إلى العالم، وذلك أن قوابل العالم ولو اقتضت شيئًا فإنه من حكمها، وحكمها منه العجز لاستناد أمرها إلى غيرها، فلأجل هذا قد يقع وقد لا يقع، بخلاف الأمور التي اقتضتها الصفات الإلهية، فإنها واقعة ضرورة للاقتضاء الإلهي.

قلت: لأنه الموافق للوصف الإلهي؛ لأنه إن وقع فقد وقع مقابلاً لوصف الموجد مثلاً أو المعطي ونحو ذلك، وإن لم يقع فقد وقع مقابلاً لوصف هو المانع مثلاً.

ولم أرَ قبل من نبه على هذا، ولأجل ذلك لم يقع محو في مقابل الصفات بخلاف مقابل قوابل العالم، فعض نواجذك على هذا، فإنه مما يوضح عندك جميع هذا.

وثم وجه ثان وهو أن قوابل العالم ممكنة، والممكن يقبل الشيء وضده، فإذا اقتضت القابلية شيئًا ولم يجرِ القدر إلا بوقوع نقيضه، كان ذلك النقيض أيضًا من مقتضى القابلية التي في الممكن، فنقول بإيقاع ما اقتضته قوابل العالم على قانون الحكمة، فإذا وقع ما اقتضته القابلية بعينه قلنا بوقوعه على القانون الحكمي، وهذا أمر ذوقي لا يدركه العقل من حيث نظره الفكري.

بل هو كشف إلهي يمنحه الله من يشاء من عباده، ولا شيء يقربه من الذهن مثل الكلام الذي أسندته لنفسي قريبًا غفر الله لي.

فالقضاء المحكم هو الذي لا تغيير فيه ولا تبديل، والقضاء المبرم هو الذي يمكن فيه التغيير؛ لأنه مشتقٌّ من أبرم الحبل جعله طاقتين، ولذلك يمكن فيه النقض الذي هو كالتغيير.

=

(1) رواه أحمد في المسند (307/1)، والطبراني في الكبير (223/11)، والبيهقي في شعب الإيمان (27/2)، (203/7)، وأبو نعيم في الحلية (314/1)، وعبد بن حميد في المسند (214/1).

ولذلك ما استعاذ رسول الله ﷺ إلا من القضاء المبرم، وقال: «**إن الدعاء يرده**[1]»؛ لأنه يعلم أنه يمكن فيه التغيير والتبديل.

قال تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ**﴾ [الرعد:رمضان ربيع أول].

بخلاف القضاء المحكم فإنه المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً**﴾ [الأحزاب:شعبان ربيع أول].

واعلم أنه تعالى قال: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾ [البروج:محرم صفر، صفر صفر]، فإن كان المقصود به هذا اللوح فالمعنى أن القرآن هو أعيان الكائنات، وما لم يأتِ فيه لم يوجد، ولذلك قال تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام:38].

وإن كان اللوح من لاح له كذا: أي ظهر، فالمعنى أنه في لوحٍ: أي نزول ظاهر محفوظ من إلقاء الشيطان وغيره.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله خلق لوحًا محفوظًا من درةٍ بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، طوله ما بين السموات والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، ينظر الله فيه كل يومٍ ثلاثمائة وستين مرة، يحيي ويميت، ويعز ويذل، يفعل ما يشاء، وفي صدر اللوح: (لا إله إلا الله وحده، ودينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن به وصدق وعده واتبع رسله أدخله الجنة).

واللوح في اللغة: كل صحيفةٍ عريضةٍ خشبًا أو عظمًا.

وفي الحقيقة: كل ما يُكتب عليه، فلذلك صار الكون كله لوحًا، وكل شيءٍ منه لوح؛ لأنه كله كتب عليه الوجود، وكل فرد منه كذلك.

[أنواع الألواح]

وُيقال: **الألواح أربعة:**

الأول: لوح القضاء السابق الخالي عن المحو والإثبات.

الثاني: لوح القدرة الذي فيه كليات اللوح الأول.

(1) رواه الحاكم في المستدرك (548/3)، وابن أبي شيبة في المصنف (109/6).

والثالث: لوح النفوس الجزئية السماوية التي يتنفس فيها كل ما في هذا العالم بشكله وهيئاته ومقداره.

والرابع: لوح الهيولي[1] القابل للصور في عالم الشهادة.

***

تنبيه

اعلم أنهم يكثرون العبارات عن الهيولي ويسألون عنه، وأقرب ما يقربه للذهن أنه مشتق من: هال يهيل وأهاله فانهال: أي انصب، وذلك أن هذا العالم أبدًا منصب ومصبوب، ولذلك صار قابلاً للصور في عالم الشهادة.

واعلم أن اللوح أيضًا معنوي وصوري، فالصوري هو القابل للتغير والتبدل، وأما المعنوي فهو الذي لا يقبل التغير ولا التبدل، وليس زمان ولا حجم، وقد وقع الكل بإرادةٍ واحدةٍ، ومن استغرقه بحر اللوح الأصلي علم الوقائع الكونية الماضية والآتية بالضرورة، وإذا أخبرته بوقوع شيء لم يكن أنكر ذلك، وإذا أخبرته بأمرٍ كان صدقك؛ لأن العلم جرى على اللوح بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فلا يتبدل ولا يكون غيره، ولذلك كذبك في خبرِ غير الكائن، وبالكائن صدقك، وإن لم يركب صاحبه في سفينة الشريعة غرق غرقًا شديدًا، وإن ركب فيها نجا، وكان فعله سديدًا؛ لأنه الذي يوافق عليكم بالظواهر، والله يتولى السرائر.

***

تاسع البحور: «بحر العرش»

والأصل فيه: ﴿**وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ**﴾ [التوبة:129]، ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه:5].

(1) قال الشيخ القاشاني قدس سره: هو عند الطائفة اسم للشيء باعتبار نسبته إلى ما هو ظاهر فيه، بحيث يكون كل باطن هيولي الظاهر، الذي هو صورة فيه، ثم إنه لما كانت الصورة الجسمية هي أظهر الصور للمدارك صارت الهيولي إنما تطلق في الأكثر، ويراد بها محل الصورة الجسمية. اللطائف (ص456) طبع العلمية، تحقيق الشيخ عاصم الكيالي حفظه الله تعالى ونفع به.

واعلم أن العرش لغةً هو السرير المرافق للملك في كل أحواله، وفي الحقيقة العرش مظهر العظمة، ومكانة التجلي.

وهو هيكل العالم وجسده الجامع لكل متفرقاته، ويُسمَّى جسم الحضرة ومكانها، لكنه المكان المنزَّه عن الجهات الست؛ لأن باطنه عالم القدس، وظاهره عالم الأنس، فعالم القدس هو عالم الأسماء والصفات، وعالم الأنس هو محل التجسيم والتصوير والتشبيه، وربنا الله والجليل المحتجب بحجب المخلوقات لجلاله، وهو الجميل المتجلي بجمال رحمته على الكل؛ إذ لا يخلو شيء من الرحمة الرحمانية.

ولذلك قال تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**﴾، وعرش كل شيءٍ ظاهره: أي استوى على عرش وجود الكل بظهور الصفة الرحمانية، وهذه الرحمانية هي التي لها العموم، كما قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:156] [1].

وقال تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً**﴾ [غافر:7].

وأما عالم الأنس منه فهو عرش الهُوية في قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**﴾ [هود:7]، والماء هو الذي وُجد منه كل موجودٍ.

قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء:30]، والحياة تعم الوجود كما تقدَّم، والهوية هي مظهر البطون، ولذلك صحَّ التجسيم والتصوير في عرشها، ومن استغرقه بحر العرش وجد الظهور المعنوي في أسماء الله وصفاته، والبطون الحقيقي في أسماء الخلق وصفاته، ويجد الظهور الصوري الخلقي بأنواع التشبيه.

وفي هذا المعنى قال ﷺ عن بعض ما وقع بينه وبين ربه: «**فوضع يده بين كتفي فوجدت برده**[2]».

فبسبب ذلك إن لم يركب صاحب هذا البحر في سفينة الشريعة غرق في ما لا يحتمل العبارة إلاَّ بوجه أظهره أغمض الإشارة، وإن ركب في سفينة الشرع وجد عرش الشرع

---

(1) انظر: الميزان الذرية (ص100) بتحقيقنا.

(2) رواه الترمذي (366/5)، (367/5)، وأحمد (368/1)، (58/5)، والطبراني في الكبير (109/20).

شرع العرش؛ إذ العرش مقلوب الشرع والشرع مقلوب العرش، وباتِّباع الشرع شـــريعة وحقيقة يظفر بالعرش، فافهم جعلنا الله وإياك ممن يعلم ويفهم.

واعلم أن العرش يُقال للركن، والركن الجانب الأقوى، ولذلك صار عرش الرحمن لا يحد؛ لأنه نتيجة الأمر الإيجادي بالظاهر والباطن، ولتلك النتيجة أركان أربعة هي: الحركة المعنوية الأسمائية، والحركة النورية الروحانية، والحركة الطبيعية المثالية، والحركة الصورية الحسيَّة، وتلك الحركة الصورية الحسيَّة هي العرش، وتلك الحركات إن شئت قلت لهـــا أضداد من السكون، لكنه لا يُدرك إلا بالعدم المحض في الوجود المحض، وإن شئت قلت لا أضداد لها؛ لأن من لم يكن في الزيادة فهو في النقصان مستكن، فالحركة أبدًا دائمة لكنها طورًا تظهر وتارةً تستكن، وهنا عبارات تُذاق ولكن بها قول العبارات ما لاق.

ويُقال: العرش هو الفلك التاسع، وهو جسمٌ عظيمٌ لا يعلم عظمه إلا الله تعالى؛ لأنه في الآفاق منـــزلة القلب في الأنفس، والقلب أوسع شيء لما وسع الله كما في الحـــديث المتقدم، ويكفي من نعت عظمة العرش أن قوائمه ثمانية، كل قائمةٍ قدر السموات السبع والأرضين السبع ستين ألف مرة، وكما بين القائمتين كذلك.

قال جامعه عفا الله عنه: قد وقعت لي فيه رؤية فقصصتها على شيخنا ﷺ وأرضـــاه فقال لي: والله يا بني لقد رأيت شيئًا عظيمًا والأمر كذلك، وكيف لا وقد وصفه الحـــق بذلك.

وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: «إن الله قد خلق العرش رابعًا لم يخلق قبله إلا ثلاثة: الهواء، والقلم، والنور، ثم خلق العرش من أنوارٍ مختلفةٍ، من ذلك نورٌ أخضر منه اخضرَّت الخضرة، ونورٌ أصفر منه اصفرَّت الصفرة، ونورٌ أحمر منه احمرَّت الحمرة، ونورٌ أبيض وهو نور الأنوار ومنه ضوء النهار».

قال بعض الكبار: الأنوار أربعة على عدد المراتب الأربع، فإذا أعطى الأنوار يعطي في مرتبة الطبيعة نورًا أسود، وفي مرتبة النفس نورًا أحمر، وفي مرتبة الروح نورًا أخضر، وفي مرتبة السر نورًا أبيض.

قال جامعه عفا الله عنه: فبسبب ذلك إذا استغرق هذا البحر المرء لا يشاهد أبدًا غيره، ولا يميز بين الأشياء؛ لأنها صارت عنده من شيءٍ واحدٍ، مختلفة كاختلاف الجسم الواحد، وإن لم يركب في سفينة الشرع كما تقدَّم غرق.

وفي الحديث: «**إن العرش في الدنيا تحمله أربعة وفي الآخرة ثمانية**[1]».

كما نطق الكتاب العزيز، ويُقال: إن إحدى قوائمه في الدنيا تُسمَّى اللاهوتية، وحاملها محمد ﷺ.

والثانية: تُسمَّى الناسوتية وحاملها آدم عليه السلام.

والثالثة: تُسمَّى الملكوتية وحاملها جبريل عليه السلام.

والرابعة: تُسمَّى الجبروتية وحاملها إسرافيل عليه السلام، وهي اليوم ظاهرة، والأربعة الأخرى باطنة تحملها الأسماء الأربعة المتوالية.

وقال بعض العلماء: الأربعة اللاحقة إشارة إلى الأئمة الأربعة الذين هم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد؛ لأنهم اليوم حملة الشرع، فإذا كان يوم القيامة انقلب الشرع العرش فيكونون من حملته حكمًا.

ورُوي في الحديث الصحيح: «**ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة، والعرش فوق رؤوسهم وهم مطرقون مسبحون**[2]».

قال عليه السلام: «**أُذن لي أن أحدث عن ملكٍ من حملة العرش، من شحمة أذنه إلى عاتقه خفقان الطير مسيرة سبعمائة سنة، يقول: سبحانك حيث كنت، ويُقال أن اسمه زوفيل**[3]».

* * *

عاشر البحور: «بحر الكرسي»

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ [البقرة:255].

والكرسي لغةً: سرير يظهر عليه الملك ساعة تنفيذه أموره، وفي الحقيقة: عبارة عن محل تجلي الصفات الفعلية وتعدي آثارها للغير، فهو مظهر الإيجاد والإعدام، والإذلال والإعزاز، والضرّ والنفع، والجمع والتفريق، ففيه ظهور آثار الصفات المتضادة على

---

(1) رواه أبو الشيخ في العظمة (954/3) بنحوه.

(2) ذكره ابن كثير في التفسير (196/2)، وأبو السعود في التفسير (24/9)، بنحوه.

(3) رواه أبو داود (645/2)، والطبراني في الأوسط (314/6)، وأبو نعيم في الحلية (158/3).

التفصيل، ومنه يبرز الأمر الإلهي في الوجود؛ فهو محل فصل القضاء، والقلم محل التقدير، واللوح المحفوظ محل للتدوين والتسطير[1].

وقال تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾، وهذا الوسع وسعان: وسع حكمي، ووسع وجودي عيني.

فالوسع الحكمي: هو أن السماوات: أي العلويات، والأرض: أي السفل، كل وجهٍ منها وفرد أثر صفة من صفاته الفعلية، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَئُودُهُ**﴾: أي لا يثقل عليه ﴿**حِفْظُهُمَا**﴾: أي على الوجه المراد منهما؛ إذ كل صفةٍ فعليةٍ حافظة لوجه خلقي، مراقبة له على ما هو عليه، فصفة الحياة مثلاً حافظة لما فيه الحياة من الحيوانات، وصفة القيومية حافظة للجمادات، وصفة الرب حافظة للسماوات، وصفة الخفض حافظة للأرض، واحذرْ من أن تجهل أن صفات الباري جلَّ جلاله كل واحدةٍ منها نفس الأخرى.

وأما الوسع الوجودي العيني: فهو أن الوجود السماوي والأرضي أحاط به هذا الكرسي المقيَّد المخلوق، ومعنى المقيَّد أنه المأمور، أعني المنفوذ فيه الأمر من إيجادٍ وإعدامٍ ونحو ذلك من المتضادات كلها، ومن استغرقه بحر هذا الكرسي صار له من التصريف في العالم ما لا يوصف، وصار له من الهيبة في القلوب كذلك، فإن لم يركب في سفينة الشرع ويضع نفسه كأحد المخلوقات غرق فيما لا طاقة له عليه.

قال ﷺ: «**إنما أنا كأحدكم فيما لم يوحَ إلَيَّ**[2]».

وقال: «**إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد**[3]»، فكيف بغيره.

وقولنا أن السماوات والأرض عبارة عن العلو والسفل مستعمل في العربية في غير ما مرة، كقوله تعالى في النخلة: ﴿**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾ [إبراهيم:24]: أي العلو، وكقوله: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ [الطلاق:12]: أي من السفل؛ لأن من ثم للتبعيض كما هو مقررٌ في كتب التفسير.

---

(1) انظر: الميزان (ص124) بتحقيقنا.

(2) رواه الطبراني في مسند الشاميين (384/1)، (275/3)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (429/1)، (28/9).

(3) رواه ابن ماجه (1101/2)، والحاكم في المستدرك (506/2)، (50/3)، والطبراني في المعجم الأوسط (64/2)، والدارقطني في العلل (194/6).

ويُروى أن الكرسي جسمٌ بين يدي العرش محيطٌ بالسماوات السبع؛ لأن الأرض كرة والسماء الدنيا محيطة بها إحاطة قشر البيضة بالبيضة من جميع الجوانب، والثانية محيطة بالدنيا، وهكذا إلى أن يكون العرش محيطًا بالكل.

قال ﷺ: «ما السماوات السبع والأرضون السبع من الكرسي إلا كحلقةٍ في فلاةٍ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة [1]».

ولعله الفلك الثاني وهو المشهور بفلك البروج. قاله صاحب روح البيان[2].

* * *

الحادي عشر من البحور: «بحر الحجب»

والأصل فيه قول النبي ﷺ: «**إنَّ لله تعالى سبعين حجابًا من نور وظلمةٍ، لو كشف واحد منها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**[3]».

وفي روايةٍ: «**إنَّ لله نيف وسبعين، فحجب الأنوار هي حجب الظهور والجمال، والحجب الكلمات هي حجب البطون والجلال**».

[أنواع الحجب]

واعلم أيَّدنا الله وإيَّاك بتأييد الحق أن الحجب في الحقيقة نوعان: حسِّي ومعنوي، وكلاهما نوعان أيضًا، فالحسية نوعان: أحدهما: ظلماني، وثانيهما: نوراني.

فأما الظلمانية الحسيَّة: فبعضها مذموم شرعًا، وبعضها ليس بالمذموم ولكنه ليس بمحمود، فالمذموم نحو المعاصي، والتكاثر في الدنيا على وجهٍ يخالف تمام مكارم الأخلاق؛

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (167/1)، وابن حبان في الصحيح (77/2)، وكما في الموارد (53/1)، وأبو الشيخ في العظمة (570/2)، وذكره البيضاوي في التفسير (552/1).

(2) قال الشيخ الشعراني: فأثبت ﷺ وجود عين العرش وماهيته، فخرج العرش بهذا الخبر أن يكون مُلَكًا حتى يستولي عليه، وتعيَّن أن يكون سريرًا، والعرش عند العرب هو السرير، ثم لا يخفى أن حقيقة الاستيلاء يلزم فيها طرء وصفٍ؛ إذ لا يقال استولى على كذا، إلا إذا كان على حالةٍ قبل ذلك ليس هو مستوليًا عليها، فقد تقدَّم على ذلك عدم الاستيلاء ثم حدث الاستيلاء. وانظر: الميزان (ص73) بتحقيقنا.

(3) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (101/1)، (337/1).

لقوله ﷺ: «**بُعثت لأتَمِّم مكارم الأخلاق**[1]». والذي ليس بمذمومٍ ولكنه ليس بمحمــودٍ فأنواعه كثيرة؛ لأنه كل ما ليس فيه معصية، ولا يخل بالمروءة خللاً كثيرًا من كل ما هــو مباحٌ بأنواعه، ومنه بعض تخديم الشيطان والروحانية الأرضية كلها.

وأما النوراني من نوعي الحسِّي: **فهو كل ما يحجب عن الحضرة العليَّة مما هو ممدوح شرعًا عند بعض العلماء، ومنه بعض أنواع الكشف الحسِّي وتخديم الروحانية العلوية، فإن التعلق بذلك كله حجب لكنها نورانية.**

وأما الحجب المعنــوية: فهــي أيضًا نوعان: أحــدهما: جمالي، وثانيهما: جــلالي، والجميع نوراني، ومنه ما يُدرك ومنه ما لا يُدرك، والذي يُدرك أغلبه في الجمالي، والذي لا يُدرك أغلبه في الجلالي؛ لأن الجمالي هو محل الظهور، والجلالي هو محل البطون، ومعلوم أن الظهور أقرب إلى الإدراك، والبطون منه أبعد، ولذلك صار الجمال سرمديًّا والجــلال أزليًّا؛ لأن الجمال من حيث ظهر الله في مخلوقاته، وذلك منذ وقع لا ينقطع أبدًا ســرمدًا، والجلال من حيث كان الله و لم يكن غيره مع أنه الآن على ما عليه كان، فافهم.

والأصل في هذا البحر من القرآن: ﴿**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِــذٍ لَّمَحْجُوبُــونَ**﴾ [المطففين:15]، والحجاب هو الغاية في البعد والطرد.

وقال الحسين بن الفضل رحمه الله: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبــهم في الآخرة عن رؤيته، فالموحد غير محجوبٍ عن ربِّه؛ لأنه إما مستدل بالأثر على العين، وإما مستدل بالعين على الأثر، وإما مستغرقٌ فيها عنه.

وقال ابن عطاء الله رحمه الله: الحجاب حجــابان: حجاب بعد، وحجاب إبعــاد، فحجاب البعد لا تقريب فيه أبدًا، وحجاب الإبعاد يُؤدب ثم يُقرب كآدم عليه السلام، ثم لتعلم أن المحجوب إنما هو العبد عن الله لا الله عن العبد، فتعالى الله أن يكون معه ما يحجبه، بل المحجوب العبد ببعض تصاريف الله تعالى[2].

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك (670/2)، والبيهقي في الكبرى (191/10)، والقضاعي في مسند الشهاب (192/2).

(2) قال الشيخ القاشاني في معنى الحجاب: كل ما ستر مطويك عن عينك، وذلك منك، ومن انحصارك في كل ما تراءى لك من عالم النور، أو الظلمة، لا من غيرك.

قال جامعه عفا الله عنه: ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «**إن لله تعالى سبعين حجابًا**[1]».

لم يقل: على الله، بل هي له تعالى يحجب بها من شاء عنده، ويكشف منها ما شاء عمَّن شاء، وأهل الكشف في ذلك متفاوتون تفاوتًا متباعدًا لا تتحمله العقول؛ لأن من كشف له حجاب واحد ليس كمن كشف له عن اثنين، ثم كذلك إلى ما لا نهاية له؛ لعدم تناهي الجمال والجلال.

واعلم أن لكل اسمٍ أو صفةٍ من أسماء الله تعالى وصفاته أثرًا، وذلك الأثر مظهر لجمال ذلك أو جلاله أو كماله، فالمعلومات مثلاً على العموم أثر اسمه العليم، فهي مظاهر علم الحق سبحانه وتعالى، وكذلك المرحومات مظاهر الرحمة، والمسلمات مظاهر السلام، وتقدم أن كل وصف لله تعالى أو اسم عين صاحبه، ويقرب ذلك من ذهنك أنه ما ثم موجود إلا وسلم من الانعدام المحض، ورحم بالإيجاد، وعلم بالعلم، وظهرت فيه القدرة والإرادة، وكلما انكشف للعبد أثر من آثار تلك الأوصاف والأسماء أحرقت سبحات وجهه ما كان موجودًا للعبد مما انتهى إليه بصره.

فإذا استغرق هذا البحر العبد لم يبقَ له أثر ما في الكائنات يحجبه عن مكون الكائنات، فإذا وقع له ذلك و لم يركب في سفينة الشرع غرق غرقًا لم يبقَ منه معه قليل ولا كثير، ويزيغ زيغانًا لا تنبغي عنه العبارة، وإذا تفضَّل الله عليه بالركوب في سفينة الشرع ينجو ويعلم أنه لا حجاب عن الله إلا بتصريف الله، وذلك شيء حكم الله به، وما حكم الله به لا يخرقه غيره ولا ينـزعه سواه، فيعلم أن هذه الحجبات أستار رحمة من الله على عباده؛ ليبني عليها شرعه، ويشهد ما منها على العباد رحمة، وما منها عليهم نقمة، وكل ذلك تصريف المالك في ملكه؛ لأنهم يقولون أن الحجاب رحمة لبعض المؤمنين؛ لأنه لو لم يلق عليه لما أكل، ولا شرب، ولا نام، وهو على الكافرين نقمة أعاذنا الله وإيَّاكم، وما بين ذلك مرة ومرة، وللحجاب أسرار لا تُفشى، ولولاها ما تغذَّى، وفيه قلت:

يا ربنا لا حاجب عنك سوى تصريفك الذي به كل قوى

وإنـي أرجـو بسـر سـره شهوده منك ونيـل بـره

(1) رواه الطبراني في الأوسط (278/6)، وأبو نعيم في الحلية (55/5)، بنحوه.

ثم ليكن في كريم علمك أن صفات الحق وأسمائه من حيث ما تقتضيه حقائقها على أربعة أقسام: فقسمٌ منها صفات جمال، وقسمٌ منها صفات جلال، وقسمٌ منها مشتركٌ بين الجمال والجلال، وهي صفات الكمال، وقسمٌ منها ذاتية محضة، ولولا خوف وضع الأسرار في يد غير أهلها لأبرزت مكنونها على وفق مراد من طلب فنونها، لكني أشير كما فعله غيري إلى بعضها مجملاً؛ ليستدل به من كان مكملاً.

فالذاتية: هو الله، الأحد، الواحد، الفرد، الوتر، الصمد، القدوس، الحي، النور، الحق.

والجلالية: الكبير، المتعال، العزيز، العظيم، الجليل، القهَّار، القادر، المقتدر، الماجد، الولي، الجبار، ونحوها.

والجمالية: العليم، الرحيم، السلام، المؤمن، البارئ، المصور، الغفَّار، الوهَّاب، الرزَّاق، الفتَّاح، الباسط، الرافع، اللطيف، الخبير، ونحوها.

والكمالية: الرحمن، الملك، الرب، المهيمن، الخالق، السميع، البصير، الحكم، العدل، القيوم، المقدم، المؤخر، ونحوها.

واعلم أن لكل منها أثر يمكن ظهور بعضه للخلق، وبعضه لا يمكن أبدًا، وأثر لا يمكن أصلاً، وما عليك يا أخي إلاَّ إذا تفضَّل الله عليك بكشف بعض الحجب عنك أن تحمده على ذلك، فسبحان من لم يجعل الطريق إليه إلا من حيث أراد، وسبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، وسبحان من عين جماله عين جلاله، وعين جلاله عين جماله، وهما عين كماله، وعين ظهوره عين بطونه، وعين بطونه عين ظهوره.

وإن شئت كشف الحجب كلها فامح نقطة الغين تظهر لك العين، وذلك أنك إذا محوت النسبة للغير وجدت النسبة له تعالى، لكن عليك بالشرع؛ لأنه مظهر الطاعة والسمع.

* * *

البحر الثاني عشر: «بحر الأفلاك»

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [الأنبياء:33].

اعلم أن الفلك: حركة مدار النجوم، وجمعه: أفلاك وفُلُك بضمتين، ومن كل شيءٍ مستداره ومعظمه، وموج البحر المضطرب، والماء الذي حركته الريح، والكل من الرسل حوله فضاء، وقطع من الأرض تستدير وترتفع عمَّا حولها، الواحدة (فلْكة) ساكنة اللام جمعه: فلاك رجال، والأفلك: من يدور حولها، وفلك ثديها: استدار، وفلكة المغزل معروفة.

والحاصل: أن كل ما استدار يُقال له فلك أو فلكة، ومنه انشق للأفلاك اسمها، وهي مدار النجوم الذي يدور بها وتدور فيه، والمشهور من ذلك ثمانية، وأما هي في الحقيقة كثيرة حتى قيل أن لكل موجودٍ في العالم فلك وسيع يراه المكاشف ويسبح فيه، ويعلم ما يقتضيه، فلا تُحصى الأفلاك لكثرتها، قال تعالى: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾.

والأفلاك المشهورة كل فلكٍ منها بين سمائين، وكل فلك مماس لسمائه ما تحته، وهو أمرٌ معنويٌّ، وعلى أنه حسِّي فهو جرم شفاف، لا لنا سبيل إلى درك حقيقته لا سيما بالعبارة، ولو أخذت في بيان ما قيل في كل فلكٍ من الرقائق والثواني والدقائق والدرج والحلول والسمت والسير، واشتغلت بشرح خواص ذلك ومقتضياتها لاحتجت إلى مجلداتٍ كثيرةٍ فلنعرض عن ذلك، فالمطلوب ليس إلا معرفة الله تعالى، والتنبيه على أن المغيبات إذا تعرضت لك أيها الطالب لمعرفته لا تشغلك عنها، وإنك أبدًا إذا تفجَّرت عليك بحورها تركب لها في سفينة الشرع.

وأول الأفلاك المشهورة: وهو فلك القمر وهو فلك سماء الدنيا، وهو أصغر الأفلاك، ومسيرته أحد عشر ألف سنة، وهو أصغر أفلاك السماوات، فيقطع القمر جميع دور هذا الفلك في أربع وعشرين ساعة معتدلة، أعني مستقيمة، فيقطع في كل ساعةٍ مسيرة أربعمائة وثمانية وخمسين سنة ومائة وعشرين يومًا، وقطر هذا الفلك مسيرة أربعة آلاف سنة وخمسمائة عام.

ثم إن للقمر فلكًا في نفس الفلك، وكذلك كل كوكبٍ فإن له فلكًا صغيرًا يدور بنفسه في الفلك الكبير، فالفلك الأكبر بطيء الدورة، وذلك الفلك الصغير سريع الدورة.

واعلم أن السماوات بعضها محيطٌ ببعضٍ، فأكبرها سماء زحل، والنجوم الثوابت في فلك أكبر من فلك زحل، وأصغرها سماء القمر، فسماء القمر مثلاً منزلته مع منزلة ما

فوقه، بطة صغيرة في بطة أكبر منها، والثانية مع الثالثة كذلك ثم كذلك إلى أعلاها، ونحن في وسط ذلك كله.

وجعل الله فلك عطارد وسمائه مسيرة ثلاثة عشرة ألف سنة وثلاثمائة سنة وثلاثة وثلاثين سنة ومائة وعشرين يومًا، يقطع كوكبها وهو عطارد في كل ساعةٍ مسيرة خمسمائة سنة وخمس وخمسين سنة وخمسة أشهر وعشرين يومًا، فيقطع جميع فلكه في مضي أربعة وعشرين ساعة معتدلة، ويقطع الفلك الكبير في مضي سنة كاملة.

والسماء الثالثة التي فيها الزهرة فلكها مسيرة خمس عشر ألف سنة وستة وثلاثين سنة ومائة وعشرين يومًا، يقطع كوكبها وهو الزهرة في كل ساعةٍ مسيرة ستمائة سنة وإحدى وثلاثين سنة وثمانية عشر يومًا وثلث يوم، فيقطع جميع الفلك في مضي أربعة وعشرين ساعة.

ويقطع جميع منازل الفلك الكبير في مسيرة ثلاثمائة يوم وأربعة وعشرين يوم، وغير هذا أعرضت عنه لكون هذا مما لا كثير طائل تحته، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ [الأنعام:97]، وقال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾ [البقرة:189]، بمعنى أن السؤال عن هذه الأشياء والكلام فيها لا يفيد شيئًا إلا إذا كان على وجه الاعتبار، وليس إلا كالبيت الآتي في النظم وهو قولي:

لأنه بغير ذوق ما دري

وقد قيل: إن جملة الأفلاك التي خلقها الله في هذا العالم ثمانية عشر فلكًا:

الفلك الأول: العرش المحيط، الفلك.

الفلك الثاني: الكرسي.

والفلك الثالث: الأطلس وهو فلك سدرة المنتهى.

الفلك الرابع: الهيولي.

الفلك الخامس: الهباء.

الفلك السادس: العناصر.

الفلك السابع: الطبائع.

الفلك الثامن: المكوكب، ويُقال: إنه هو فلك زحل، ويُسمَّى فلك الأفلاك.

الفلك التاسع: فلك المشترى.

الفلك العاشر: فلك المريخ.

الفلك الحادي عشر: فلك الشمس.

الفلك الثاني عشر: فلك الزهرة.

الثالث عشر: فلك عطارد.

الرابع عشر: فلك القمر.

الخامس عشر: فلك الأثير وهو النار.

السادس عشر: فلك الهواء.

السابع عشر: فلك الماء.

الثامن عشر: فلك التراب.

وقد تقدَّم أنه قيل: إن الأفلاك كثيرة وهو الحق، فإذا تفجَّر هذا البحر أعني بحر الأفلاك على العبد انفك عنه حجر التقييد بشيءٍ عن شيءٍ، وطاش عقله حتى لا يدري ما بعضه، ولا ما كله، ولا ما فوقه، ولا ما تحته، وإن لم يركب في سفينة الشرع زاغ زيغانًا يضيق به كل الزرع، وإن ركب في سفينة الشرع ثبت، وأراه الشرع أن هذه أمورًا بنى الله بها هذا العالم، وأن ما فيها من المصالح ما لا تحتمله العقول، ويسكن على ما جاء عن النبي من النقول، فينال العارف وينجو من المتالف.

***

البحر الثالث عشر: «البحر المحيط»:

اعلم رحمك الله أنهم يقولون في اللغة: حاطه يحوطه حوطًا: رعاه، وحوط حوله تحويطًا: أدار عليه نحو التراب حتى جعله محيطًا به، وأحاط القوم بالبلد إحاطة: استدار بجوانبه.

والقوم رضي الله عنهم يذكرون في هذا المعنى بحرين:

أحدهما يقولون له: البحر المحيط وهو هذا.

وثانيهما يقولون لـــه: بحر الإحاطة، وسيأتي إن شاء الله.

وكلاهما أنه محيطٌ بما قبله من البحور إلا أن هذا خلقي، والآتي خالقي، وشـــتَّان مـــا بينهما.

والمراد بهذا البحر عندهم بحر الهواء؛ لأنه مرآة كل الكائنات، وفيـــه ظهـــر جميـــع الموجودات، وهو الموصل للحواس محسوساتها، والموصل للحياة إلى تجويفها، والمخـــرج لعكسها عنها، وهو المبلغ لكل سائر إلى ما سري إليه، فالعارج عارج به، والنازل نـــازل به، ولا يلج شيء شيئًا إلا به، ولا يخرج منه إلا به.

ولولا حركته بالنجوم والنجوم فيه والأفلاك فيه، وفي الأفلاك ما وصلت الأخبار ولا الأسرار النجومية ولا غيرها إلى غيرها، وما من شيءٍ قط من الكائنات إلا ومحيط به قدره من هذا البحر، ويبقى منه قدر غيره، ولو بلغ غاية الكِبر والكثرة فهو المحيط أبدًا بغيره من الكائنات، حتى إذا لم يكن إلا هو صار الفراغ الذي يحيط به إلاَّ الله تعالى.

والأصل في هذا البحر قوله تعالى: ﴿**وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾ [إبراهيم:43]: أي خاليـــة، والمعنى أنها خالية من العقول لفراغهم: أي تشبه الهواء في تفرغه من الأشياء، وهو أول ما ظهر من الحضرة الإلهية ظهورًا لا يدركه إلا الله، ثم صار غيره يظهر فيه بحسب الأوليات، فقد رُوي: «**إنَّ أول ما خلق الله تعالى القلم، وقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ**[1]».

ورُوي: «**إنَّ أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة، فجعـــل الظلمة ليلاً أسود، وجعل النور نهارًا أبيض**[2]».

ورُوي: «**إنَّ أول ما خُلق نور النبي ﷺ**[3]».

ورُوي: «**إنَّ الله تعالى لما خلق القلم خلق له اللوح فجرى فيه بما هو كائنٌ**[4]».

(1) رواه أبو داود (637/2)، والترمذي (457/4)، وأحمد في المسند (317/5)، وأبو نعيم في الحلية (248/5)، والطبري في التفسير (175/12).
(2) رواه الطبري في التفسير (222/1)، وذكره القرطبي في التفسير (73/20).
(3) ذكره الألوسي في روح المعاني (51/1)، (71/8)، (105/17)، بنحوه.
(4) ذكره السيوطي في الدر المنثور (242/8).

وقـــد قيل: إن الذي خلق الله تعالى بعد القلـــم الكرســـي، ثم العـــرش، ثم الهـــواء، ثم الظلمات، ثم الماء، فوضع العرش عليه.

وقد رُوي: أن أول ما خلق الله بعد القلم سحابًا رقيقًا، وهو الغمام الذي قال فيـــه النبي ﷺ وقد سأله أبو رزين العقيلي: «**أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: في غمامٍ، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء**[1]».

وهو الغمام الذي ذكره الله في قوله: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّـــنَ الغَمَامِ**﴾ [البقرة:210].

ثم اختلف العلماء فيمن خلق الله بعد الغمام.

فروى الضحَّاك بن مزاحم عن ابن عباس: أول ما خلق الله العرش فاستوى عليه، وقد جمح بنا القلم إلى ما لسنا بصدده مع أن كل ما ليس بالغمام المنصوص عليه فهو في الهواء لا محالة، ويكفي الهواء من الإحاطة إحاطته بالحروف والأصوات؛ لأنه ما من حرفٍ ولا صوتٍ يبرز إلاَّ في الهواء.

وهذا البحر إذا تفجَّر على الولي لم يدرِ أين هو ولا غيره، ولا يرى الكـــون إلا هباءً في هواءٍ، ولا ينظره في حالة يمكن أن يكون عليه فيها شرع ولا حق لآدمي ولا غيره، وإن لم يركبً في سفينة الشرع غرق، ومن شرعه تمزق، وإذا ركب في سفينة الشـــرع ثبتتـــه وأرته الأشياء على ما هي عليه من عدم في الحقيقة ووجود في الشريعة، فيصير يراها هباءً في هواء، ومع ذلك يخاف من الذنب، ويخاف على النعم، وذلك هو عين الشريعة، وإلى هذا المعنى أشرت بقولي:

أنـــا هبـــاء في هـــواء وهـــواء يلقـــى هـــواء في هـــواء بهبـــاء
فـــلا تؤاخـــذنا بـــذنب لا تـــزل عنـــا إلهـــي نعمًـــا لنـــا أجـــل
بجـــاه أفضـــل الأنـــام صـــليا عليـــه مـــع كـــل ســـلام رضـــيا

وأما البحر المحيط المائي المحسوس فهو محيطٌ بجميع أجزاء الأرض إحاطة بياض العـــين بسوادها، وله سبعة جداول، وله مجمع بين العذب والمالح، وفي ذلك المجمع عين يُقال لها

(1) رواه ابن حبان في صحيحه (9/14) بنحوه.

عين الحياة، من شرب منها عاش بقية الدهر كما وقع للخضر ، وهو محفوف من ورائه بجبل قاف، ولو تتبعت أخباره الحسية والحقيقية وإشاراته الحسية والمعنوية لاحتجت إلى مجلداتٍ، لكن في هذا كفايات.

***

البحر الرابع عشر: «بحر الملائكة»:

وأصله من القرآن كثير، ومن الحديث كذلك نحو: ﴿**فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُون**﴾ [الحجر:30]، ونحو: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ**﴾ [التحريم:6].

وغير هذا البحر لا ساحل لـه؛ لأنه يُقال: إن القلم واللوح والعرش والكرسي ملائكة، وأنهم في السماوات كالروح في البدن؛ لأنه جاءنا في الحديث الصحيح أن الله تعالى خلق الملائكة من نورٍ، وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور:35]، وفي الحديث: «**إن الله تبارك وتعالى قال: كنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني**[1]».

فأول ما خلق نور محمد ﷺ.

ولذلك قال: «**أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر**[2]».

وخلق من نوره الملائكة الأولين، فأول ما خلق منهم القلم.

ولذلك قال ﷺ: «**أول ما خلق الله القلم**[3]»؛ لأنه أول ما صدر منه التوجه، فلما وقع التوجه الذي هو المقابلة خلق الملك المُسمَّى باللوح منه، فلما وقعت المقابلة وهو تداخل التجليات كانت ظلمة مع وجود النور فيها، فكان من هذا المجموع ملك فسُمِّي بالعرش، وكان من غير النور.

والظلمة ملك مُسمَّى بالكرسي، فكان من هذا الملك السموات والأرض: أي معنى اسمه الذي هو الكرسي، فتبارك الله أحسن الخالقين، فلم تزل الملائكة مختصة بمحل الأنوار، وداخلة في محل الظلمات، وسواء في ذلك الشفاف والكثيف.

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (173/2)، والقنوجي في أبجد العلوم (159/2).
(2) ذكره العجلوني في كشف الخفا (311/1).
(3) تقدم تخريجه.

فإذا تمهَّد لديك هذا فاعلم أيضًا أن الله تبارك وتعالى خلق ملكًا يُقال له: الأمر، ويُقال له: الروح، ويُقال لــه بالإضافة إلى الله تعالى: أي أمر الله، وأمر الرب كما قال تعــالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء:85].

ذلك أن هذا الملك يُقال: إنه هو أشرف الموجودات وأعلاها مكانةً، وأسماها منــزلةً، ليس فوقه ملك وهو سيد المقرَّبين، وأفضل المكرَّمين، أدار الله عليه رحــي الموجــودات، وجعله قطب فلك المخلوقات، له مع كل شيءٍ خلقه الله تعالى وجه خاص به يلحقه، وفي المرتبة التي أوجده الله تعالى فيها يحفظه، وله من الوجوه غير ذلك ما لا يعلم علمه إلا الله تعالى، ولهذا الملك في العالم الأفقي والعالم الجبروتي والعالم العلي والعالم الملكوتي والعــالم الملكي هيمنة إلهية خلقها الله تعالى في هذا الملك، وقد ظهر بكماله في الحقيقة المحمدية.

ولهذا كان ﷺ أفضل الخلق، وبهذا الملك امتَّن الله عليه ﷺ، وأمدَّه من أجل النعم التي أسداها الله تعالى إليه.

فقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَــاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِــرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى:52]، يعني أنا جعلنا لروحك وجهًا كاملاً من وجوه هذا الملــك الذي هو أمرنا؛ لأن الملك اسمه: أمر الله.

وإليه الإشارة في قوله: ﴿**مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء:85]، كما تقدَّم: أي وجه مــن وجوهه.

والنكتة أنه لما أطلق ذكــر الروح في سؤالهم عنه بقوله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ**﴾ أطلق في الجواب فقال الله عز وجل: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾: أي وجه من وجــوه الأمر، بخلاف روح محمد ﷺ فإنه قال فيه: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَــا**﴾ [الشورى:52]، وذكره للاهتمام به، ونكره لجلالة ذلك الوجه تنبيهًا على عظم قــدر محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ**﴾ [هود:103]، أفاد التنكير عظم ذلك اليوم، ثم قال: ﴿**رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا**﴾ ولم يقل: (أوحينا إليك من أمرنا)؛ لأنــه المقصود من الوجود؛ لأن الروح هو المقصود من الهيكل الإنساني، ثم أتى بنون الإضافة في قوله: (من أمرنا)، كل ذلك تأكيدًا وتنبيهًا على عظم قدر محمد ﷺ؛ لأنه روح الأرواح، ونور أنوار الفلاح.

وأما كثرة الملائكة غير ذلك فهو أمرٌ خارقٌ للعقول، ولا تحتمله النقول، ولو تتبعت أخبارهم العليا لما أكملتها في الدنيا، ومن استغرقه بحر الملائكة أوحى إليه ما هو فاعلٌ أبدًا في أصل خلقته، فلا يحتاج إلى دليلٍ خارج من قلبه ولا من غيره، وربما شاهد أن الأجسام تبع للأرواح، والأرواح من الملائكة، والملائكة لا تكليف عليهم، والتابع لا حكم له، فيزيغ عن الشريعة زيغًا لا يعبر، وصاحبه عن شهوده لا يغير، وإذا لم يركب في سفينة الشريعة انهمك في ذلك، ولم يكن له رجوع عما هنا لك، حتى يهلك في الهوالك، وإذا ركب في سفينة الشريعة نجا، ولم يخف مما فيه ولجا، ويشهد بأنوار الشريعة ما على كل من الأرواح والأجسام، ويحكم على الجميع بما حكم عليه رب الأنام، فيكون تابعًا للروح المحمدي، والجسم الأحمدي، فينجو مع الناجين، والحمد لله رب العالمين.

***

الخامس عشر: «بحر البأسية»

اعلم رحمك الله أن البأسية نسبة إلى البأس وهو الضر، وضده النفع واستغنوا بذكر أحدهما كما في قوله تعالى: ﴿**سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ**﴾ [النحل:81]: أي والبرد، وأصله في القرآن كثير وفي الحديث كذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:65]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:25].

اعلم أن من سنة الله تعالى في خلقه أن يذيق الكافرين بأس المؤمنين وبالعكس، وأن يذيق بعض الكافرين بأس بعض، وبعض المؤمنين بأس بعض، كما هو في أكثر الأزمان والأعصار على حسب التربية المبنية على جماله وجلاله تعالى.

وكذلك النفع فإنه تعالى من حكمته أن يذيق الكافرين نفع المؤمنين وبالعكس، وأن يذيق بعض الكافرين نفع بعض، وبعض المؤمنين نفع بعض، وهذا مشاهد بالعيان ولا يحتاج إلى تبيان، بل من حكمته تعالى أن يذيق المرء نفع نفسه وضرها، ولو في الأكل والشراب، فسبحان من تجلَّى بجماله وجلاله في خلقه بلا ارتياب.

وفي الحديث: «**سألت ربِّي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسُّنة فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**(1)».

وقوله: (بالسنة) أراد بها قحطًا يعم أمته، وأراد (بالغرق) بفتح الرَّاء ما يكون على سبيل العموم كطوفان نوح عليه السلام.

قال بعض العلماء: تأثير طوفان نوح عليه السلام يظهر في كل ثلاثين سنة مرة واحدة، لكن على الخفة، فيقع مطر كثير، ويغرق بعض القرى والبيوت من السيل، وأراد عليه السلام بالبأس: الحرب والفتن، وقد جمح بنا القلم إلى ما نحن ليس بصدده.

وهذا البحر إذا استغرق العبد لم تكن منه حركة ولا سكون إلا عن أمرٍ إلهيٍّ؛ لاستغراقه في شهود صدور الأفعال نفعًا وضرًّا من موجدها، بل ربما إذا تجلَّى له من بعض أنوار الصفات يغيب غيبة يحصل له بها بعض ألفاظ لا تُحتمل، حتى يصير يقول: أنا الحق، ويقول: سبحاني ما أعظم شأني(2).

---

(1) رواه مسلم (2216/4)، وأحمد (175/1)، (181/1)، وابن أبي شيبة في المصنف (64/6)، وأبو يعلى في المسند (84/2).

(2) قائله سيدنا أبو يزيد: وقد قيل لأبي القاسم الجنيد قَدَّس الله روحه: إن أبا يزيد يسرف في الكلام. قال: وما بلغكم عن إسرافه في كلامه؟ قيل يقول: «سبحاني سبحاني ما أعظم =

وإن لم يركب حينئذٍ في سفينة الشرع أذاقه الله بأسه بالردع، كما وقع للحلاج رحمه الله وغيره.

وإن تفضَّل الله عليه بالركوب في سفينة الشرع ثبت وأخذ حذره، وعلم قدره، قال تعالى: ﴿**خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾ [النساء:71]، فيرخي على نفسه حجابًا نورانيًا للشريعة يعلم به أن لا نفع ولا ضر إلا من الله، ولا تنزيه إلا له، ويعلم أن أفضل المخلوقات قيل له: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَراً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ [الأعراف:188].

وقولنا: يغيب غيبة يحصل له.... اعلم أن تلك الغيبة لا تحصل للعبد إلا أن يصل إلى مرتبةٍ يتجلّى فيها معنى قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:88]، فإن السالك إذا جاوز مرتبة الطبيعة والنفس والروح والسر يضمحل عنده ما سوى الله تعالى، فلا يرى غير الله تعالى، فاضمحلال ما سواه وفناؤه هو القيامة الكبرى عند القوم، وهذه مرتبةٌ عظمى لا يصل إليها إلا أهل العناية، جعلنا الله وإيَّاكم منهم.

=

شاني)). فقال الجنيد: إن الرجل مستهلكٌ في شهود الإجلال، فنطق بما استهلكه؛ لذهوله في الحق عن رؤيته إيَّاه، فلم يشهد إلا الحق تعالى، فنعته، فنطق به، و لم يكن من علم ما سواه ولا من التعبير عنه ضنًّا من الحق به، ألم تسمعوا مجنون بني عامر لما سئل عن اسم نفسه؟ فقال: ليلى، فنطق بنفسه، و لم يكن من شهوده إيّاه فيه، وقيل له: من أنت؟ قال: أنا من ليلى ومن ليلى أنا. وانظر: روضة الحبور ومعدن السرور في مناقب الجنيد وأبي يزيد طيفور (بتحقيقنا). وقال الشيخ أبو النصر السراج رحمه الله: وقد قصدت بسطام فسألت جماعة من أهل بيت أبي يزيد عن هذه الحكاية فأنكروا ذلك، وعلى تقدير صحة ذلك، فنقول: قوله سبحاني سبحاني على معنى الحكاية عن الله ﷻ أنه يقول: سبحاني سبحاني لأنا لو سمعنا رجل يقول: لا إله إلا أنا فاعبدني، لا يختلج في قلوبنا شيء غير أنا نعلم أنه هو ذا يقرأ القرآن، أو هو يصف الله بما وصف به نفسه، وكذلك لو سمعنا دائما أبا يزيد وغيره وهو يقول: سبحاني سبحاني، لم نشك أنه يسبح الله ويصفه بما وصف به نفسه.

وكذا قال: الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: وما يحكى عن أبي يزيد قوله: سبحاني حاشا لله أن يعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى.

قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله أنا الحق. وانظر: كتابنا في الإمام الجنيد قدس سره.

وهذه القيامة الكبرى وهي التي عَني صاحب رسول الله ﷺ بقوله كما رُوي أن النبي ﷺ ذكر يومًا أحوال جهنم، فقال واحدٌ من الأصحاب: «**ادعُ لي يا رسول الله أن أدخل فيها، فتعجبوا من قوله، فقال** عليه السلام: **إنه يريد أن يكون صاحب القيامة الكبرى**[1]».

قال حضرة الشيخ الشهير باقتادة أفندي قدس سره: نحن لا نعرف حقيقة مراده عليه السلام، إلا أنا نوجهه بأن يريد أن يشاهد القيامة الكبرى بأن يصل إلى تلك المرتبة المتقدمة قريبًا.

واعلم أن شهود أن لا نفع ولا ضر إلا من الله مطلوب غاية، بل لا يمكن إيمان العبد إلا به، قال تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**﴾ [التوبة: 51].

والإيمان بالقدر مشروط في أول مراتب الإيمان، إلا أن العبد إذا تفجَّر هذا البحر عليه بلغ مرتبة من شهود إيصال البأس والنفع، لكل من كتب له منهما شيء لا تدرك حقيقتها؛ لكون صاحبها لا حركة منه ولا سكون إلا عن أمرٍ إلهيٍّ عنده لانعدامه، وقد قال ﷺ: «**إنَّ الله تبارك وتعالى إذا تجلَّى لشيءٍ خشع له**[2]»، فهذا العبد لا يدعه الخشوع يصدر منه إلا مراد ربه مع رضاه، وانظر إلى قضية الخضر وما وقع منه من بأسٍ في الظاهر فوائد باطنة لا تنحصر.



(1) لم أقف عليه هكذا.

(2) رواه النسائي (576/1)، والحاكم في المستدرك (481/1)، والدارقطني في السنن (64/2)، والديلمي في الفردوس (162/1).

السادس عشر: «بحر الجنية»

وأصله في القرآن كثير، وفي الحديث كذلك قال تعالى: ﴿**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾ [الحجر:27]، وقال: ﴿**وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ**﴾ [الرحمن:15]، قوله: ﴿**مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾: أي من نار الحر الشديد، ويُقال: نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها، وهي نارٌ بين السماء والحجاب، فإذا أحدث الله أمرًا خرقت الحجاب فهوت إلى ما أُمرت، فالهدة التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب.

وقوله: ﴿**مَّارِجٍ مِّن نَّار**﴾: أي من لهب صافٍ من الدخان، ويُقال: المارج هو المختلط بعضه ببعضٍ من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر، الذي يعلو النار إذا أوقدت، وهي من مرج أمر القوم إذا اختلط واضطرب، فمعنى (من مارج): من لهبٍ مختلطٍ من نارٍ.

وفي كشف الأسرار: خُلق الجن من مارجٍ من نارٍ، والملائكة من نورها، والشياطين من دخانها.

واعلم أن الجن فيهم مسلمون وكافرون يأكلون، ويشربون، ويحيون، ويموتون، كبني آدم، وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون، ويُقال أنهم لا يموتون إلا إذا مات إبليس.

وقال وهب: إن من الجن من يُولد له، ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون، ولا يأكلون، ولا يشربون، وهم الشياطين، والأصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار، سُمُّوا جنًّا لتواريهم واستتارهم عن الأعين، من قولهم: جنَّ الليل إذا ستر، والشيطان هو العاتي المتمرّد الكافر، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر.

قال ابن عباس: الجان أبو الجن، كما أن آدم أبو البشر.

وقال قتادة: هو إبليس، وقيل: الجان أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين، ولذلك لا يكون في الشياطين مسلم، وفي الجن المسلمون والكافرون.

واعلم أن الله تعالى لما خلق إبليس من النار ظن أنه أشرف من آدم؛ لأنه خُلق من الطين، والنار هي أرفع الأركان، أعني التراب، والماء، والهواء، والنار، وذلك أن الله تبارك وتعالى لما خلق كرة الأرض خلق فوقها كرة الماء، وفوق ذلك كرة الهواء، وفوق ذلك كرة النار، فلما أمر إبليس بالسجود، ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾

[ص:76] ، ولم يعلم أن الخيرية في التواضع لا في التكبر، ومعنى الخيرية عنده أن النار أرفع من الطين، فالتبست عليه الأفضلية، ولذلك سُمِّي إبليس وكان اسمه عزازيل.

وقوله: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾ يعني أن الحقيقة النارية التي خلقتني منها خير من الحقيقة الطينية التي خلقته منها؛ لأن النار لا تقتضي بحقيقتها إلا العلو، والطين لا يقتضي بحقيقته إلا السفل، ألا ترى أنك إذا أخذت الشمع فنكست رأسها إلى تحت لا ترجع اللهبة إلا إلى فوق بخلاف الطين، فإنك لو أخذت كفًّا من تراب ورميت به إلى فوق رجع هابطًا أسرع من صعوده، لما تقتضيه الحقائق، فلذلك قال إبليس: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾.

قال صاحب آكام المرجان فيه: اعلم أن هذه الشبهة التي ذكرها إبليس إنما ذكرها على سبيل التعنت، وإلاَّ فامتناعه عن السجود لآدم إنما كان عن كبرٍ وكفرٍ، ومجرد إباء وحسد، ومع ذلك فما أداه من الشبهة فهو داحضٌ: أي باطلٌ؛ لأنه رتب على ذلك أنه خير من آدم؛ لكونه خُلق من نارٍ وآدم خُلق من طينٍ، ورتب على هذا أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو دونه، وهذا باطلٌ من وجوه:

الأول: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب، فإنه إذا وضع القوت فيه أخرجه أضعاف ما وضع فيه بخلاف النار، فإنها آكلة لا تبقي ولا تذر.

والثاني: أن النار طبعها الخفة والطيش والحدة، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

والثالث: أن التراب يتكون فيه، ومنه أرزاق الحيوانات وأقواتهم، ولباس العباد وزينتهم، وآلات معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

والرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة، ولا عمَّا يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان مطلقًا، وقد يستغني عنها الإنسان أيامًا وشهورًا، فلا تدعوه إليها ضرورة.

والخامس: أن النار لا تقوم بنفسها بل مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها، والتراب لا يفتقر إلى حاملٍ، فالتراب أكمل منها لغناه وافتقارها.

والسادس: أن النار مفتقرة إلى التراب، وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا متكونًا من التراب أو فيه، فهي المفتقرة إلى التراب وهو الغني عنها.

والسابع: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيفٌ تتلاعب به الأهوية فيميل معها كيفما مالت، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية هي التراب، وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب، فهو قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه فاجتباه، فكان الهواء الذي مع المادة الآدمية عارضًا سريع الزوال فزال، فكان الثبات والرزانة أصلاً له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس إليه، فعاد كل منهما إلى أصله وعنصره، آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء الخبيث.

والثامن: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة من الطبخ والتسخين والاستضاءة بها، فالشر كامنٌ فيها لا يصدها عنه إلا قهرها وحبسها، ولولا القاهر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبركة كامن فيه، كلما ثير وقلب ظهر خيره وبركته وثمرته، فأين أحدهما من الآخر.

والتاسع: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه وأخبر عن منابعها، وأنه جعلها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائبها، وما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب، إلا موضعًا أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين، تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الناس، وهم المقوون النازلون بالقواء وهي الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن.

والعاشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضعٍ من كتابه.

وذلك عمومًا كما في قوله تعالى: ﴿**وَبَارَكَ فِيهَا**﴾ [فصلت:10].

وخصوصًا كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾ [الأنبياء:71]، الآية ونحوها، وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة بل المشهود أنها مذهبة للبركات، فأين المبارك في نفسه من المزيل لها.

والحادي عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يُذكر فيها اسمه، ويسبح له فيها بالغدو والآصال عمومًا، وبيته الحرام الذي جعله قيامًا للناس مباركًا، وهدى للعالمين خصوصًا، فلو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفًا وفخرًا على النار.

والثاني عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض من المعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات، وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والرياض، والمراكب البهية،

والصور البهيجة، ما لم يودع في النار شيئًا من ذلك، فأي روضةٍ وجدت في النار أو جنة أو معدن أو صورة، أو عين فوارة، أو نهر، أو ثمرة لذيذة.

والثالث عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة في الأرض، فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء، فهي تابعة لها خادمة فقط، إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه.

والرابع عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصره رأى صورة الطين ترابًا ممتزجًا بماءٍ فاحتقره، و لم يعلم أنه مركب من أصلين: الماء الذي جعل الله منه كل شيءٍ حي، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم، هذا و لم يتجاوز من الطين إلى المنافع وأنواع الأمتعة، فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل.

قلت: ولا سيما وكلاهما يطفئ النار على حدته، فإن الماء يطفئ النار إذا صُبَّ عليها، والتراب يطفئها إذا جُعل عليها، فبان أن الطين أفضل، ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزم من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرًا من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيءٍ يخلق من المادة المفضولة من هو خير من المادة الفاضلة، فإن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقصان المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة، و لم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة انتهى.

وأيضًا فيجوز أن يكون أصل أحد الشيئين أفضل، وينضم إليه ما يقتضي مرجوحيته كما في إبليس، فإنه قد انضم إلى أصله عوارض رديئة كالكبر والحسد والعجب والعصيان، فاقتضت اللعنة عليه، وأمر آدم عليه السلام بالعكس كما قيل:

أتفخر باتصالك من علي ... وأصل البولة الماء القراح

وليس بنافع نسب زكي ... تدنسه صنائعك القباح

ولأجل ما في النار من الحركة كان للجان الانبعاث في كل شرٍّ إن كان أحدهم عاصيًا، كانبعاثهم لطلب علوم الشر في السماء، وإن كان طائعًا لم يدع من الخير شيئًا.

ولذلك تلا رسول الله ﷺ سورة الرحمن على أصحابه، وقال لهم:

«**إني تلوتها على الجن فكانوا أحسن منكم استماعًا، فكانوا يقولون: ولا بشيءٍ من آلائك ربنا نكذب، إذا قلت: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** [الرحمن:13] [1]».

واعلم أن من استغرقه وجدان بحر الجنية وجد معنى العزَّة والربوبية التي منعت إبليس من الدخول تحت الحجر المُسمَّى بالسجود، وهذه العزة هي التي قال فيها إبليس: **﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** [ص:82، 83]، وما من وجهٍ إلا ويأتي فيه إبليس وجنوده ببني آدم.

ويُقال أن لإبليس في الوجود تسعة وتسعين مظهرًا لبني آدم على عدد أسماء الله الحسنى، وله تنوعات في تلك المظاهر لا يُحصى عددها، وتلك المظاهر كلها تنحصر في سبعة مظاهر، ولا يختص مظهره بأحدٍ دون أحد، ولكن غالبًا يظهر لكل طائفةٍ بما هي فيه، ولا يزال يتنوع على المرء في كل المظاهر حتى يسد عليه الأبواب، ولا ينجي منه إلا الركوب في سفينة الشريعة.

فأول المظاهر عنده: هو الدنيا وما بنيت عليه، كالكواكب والعناصر ونحو ذلك، فيظهر بهذه المظاهر للكفَّار والمشركين فيغويهم أولاً بزينة الدنيا وزخارفها، حتى يذهب بعقولهم، ويعمى على قلوبهم، ثم يدلهم على أسرار الكواكب وأصول العناصر وأمثال ذلك، فيقول لهم: هؤلاء الفعالون في الوجود، فيعبدون ذلك، ويصيرون كالبهائم بل هم أضل سبيلاً، بل يصيرون يعبدون الحجارة والخشب حتى يصيروا كما قال تعالى فيهم: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾** [المنافقون:4].

وثاني المظاهر: هي الطبيعة والشهوات واللذات، فيظهر فيها للمسلمين العوام فيغويهم أولاً بمحبة الأمور الشهوانية، والرغبة إلى اللذات الحيوانية، مما اقتضته الطبيعة الظلمانية، حتى يعميهم فعند ذلك يظهر لهم في الدنيا، ويخبرهم بأن هذه الأمور مطلوبة لا تحصل لهم إلا بالدنيا، فينهمكون في حبِّها ويستمرون في طلبها، فإذا فعل بهم هذا تركهم فإنه لا يحتاج معهم بعد هذا إلى علاجٍ، فإذا صاروا أتباعه فلا يعصونه في شيءٍ يأمرهم به؛ لمقارنة الجهل بحب الدنيا، فلو أمرهم بالكفر لكفروا، فحينئذٍ يدخل عليهم الشك والوسواس في الأمور المغيبة التي أخبر الله عنها، فيوقعهم في الإلحاد وذلك مراده في العباد.

(1) ذكره ابن كثير في التفسير (172/4)، والهيثمي في مجمع الزوائد (117/7).

وثالث المظاهر: يظهر في الأعمال للصالحين، فيزين لهم ما يصنعونه يــدخل علــيهم العجب، فإذا دخل عليهم العجب بنفوسهم وأعمالهم غرَّهم بما هم عليه، فلا يقبلون من عالمٍ نصيحة، فإذا صاروا عنده بهذه المثابة قال لهم: يكفي لو عمل غيركم عشر معشار ما تعملونه لنجا، فقللوا في الأعمال، وأخذوا في الاســتراحات، واســتعظموا أنفســهم، واستخفوا بالناس، ثم إذا أكسبهم هذه الأشياء مع بؤسٍ ما كانوا عليه من ســوء الخلــق وسوء الظن بالغير انتقلوا إلى الغيبة، وربما يدخل عليه المعاصي واحدة بعد واحدةٍ، ويقول لهم: افعلوا ما شئتم؛ فإن الله غفورٌ رحيمٌ، والله ما يعذب أحد مثلكم، إن الله يستحي من ذي شيبةٍ، إن الله كريمٌ حاشا الكريم أن يطالب بحقه، وأمثال ذلك حتى ينقلهم عمَّا كانوا عليه من الصلاح إلى الفسق، فعند ذلك يحل بهم البلاء والعياذ بالله منه.

رابع المظاهر: النيَّات والتفاضل بالأعمال، يظهر فيها على الشهداء، فيفسد نيَّــاتهم لتفسد أعمالهم، فبينما أن العامل منهم يعمل لله تعالى يدس عليه شيطانه في ظاهره أحسن أعمالك؛ فالناس يرونك لعلهم يقتدون بك، هذا إذا لم يقدر أن يجعله رياءً وسمعةً؛ ليُقال: فلان كذا وكذا، فإنه يدخل عليه من حيث الخير، ثم يأتي إليه وهو في عملٍ مثلاً كقراءة قرآن فيقول له: هلا تحج إلى بيت الله الحرام، وتقرأ في طريقك ما شئت، فتجمع أجــري الحج والقراءة، حتى يخرجه إلى الطريق، فيقول له: كن مثل الناس أنت الآن مســافرٌ مــا عليك قراءة، فيترك القراءة، وبشؤمه ذلك قد تفوته الفرائض المفروضة المكتوبة، وقــد لا يبلغ الحج، وقد يشغله عن جميع مناسكه بطلب القوت، وقد يورثه بذلك البخل وســوء الخلق وضيق الصدر، وأمثال ذلك من هذا كثيرٌ، فإنه من لا يقدر أن يفسد عليه عملــه يدخله على عملٍ أفضل مما هو عليه؛ حتى يخرجه مــن العمل الأول ولا يتركه في الثاني.

وخامس المظاهر: العلم يظهر فيه للعلماء، وأسهل ما على إبليس أن يغويهم بالعلم، قيل أنه يقول: والله لألف عالم عندي أسهل من أمي قوي الإيمان؛ فإنه يتحيَّر في إغوائــه بخلاف العالم؛ فإنه يقول له ويستدل عليه بما يعلمه العالم أنه حقٌّ، فيتبعه فيغوى بــذلك، مثلاً يأتي إليه بالعلم في محل شهوته، فيقول لــه: اعقد بهذه المرأة على مذهب داود وهو حنفي، أو على مذهب أبي حنيفة بغير وليٍّ وهو شافعي، حتى إذا فعــل ذلــك وطالبتــه الزوجة بالمهر والنفقة والكسوة، قال له: احلف لها أنك ستعطيها كيت وكيت، وتفعل لها ما هو كذا وكذا، ولو كنت لم تفعل فإنه يجوز للرجل أن يحلف لامرأته حتى يرضيها ولو كذبًا، فإذا طالت المدة ورفعته إلى الحاكم يقول لــه: أنكر أنها زوجتك؛ فإن هذا العقد

فاسدٌ، غير جائزٍ في مذهبك، فليست لك بزوجة، فلا تحتاج إلى نفقةٍ ولا إلى غيرها، فيحلف ويمضي، وأنواع ذلك كثيرة جدًّا لا تُحصى وليس لها حدٌّ، بل ليس يسلم منه إلا آحاد الرجال الأفراد.

وسادس المظاهر: يظهر في العادات وطلب الراحات على المريدين الصادقين، فيأخذهم إلى ظلمة الطبع من حيث العادة وطلب الراحة، حتى يسلبهم قوة الهمم في الطلب، وشدة الرغبة في العبادة، فإذا عدموا ذلك رجعوا إلى نفوسهم، فصنع بهم ما هو صانعٌ بغيرهم ممن ليس له إرادة، فلا يخشى على المريدين من شيءٍ مما يخشى عليهم من طلب الراحات والركون إلى العادات.

وسابع المظاهر: المعارف الإلهية يظهر فيها على الصديقين والأولياء والعارفين إلاَّ من حفظه الله تعالى، وأما المقرَّبون فما له عليهم من سبيلٍ، فأول ما يظهر به عليهم في الحقيقة الإلهية فيقول لهم: أليس أن الله حقيقة الوجود جميعه، وأنتم من جملة الوجود والحق حقيقتكم، فيقولون: نعم، فيقول: لِمَ تتعبون أنفسكم بهذه الأعمال التي يعملها هؤلاء المقلدة؟! فيتركون الأعمال الصالحة، فإذا تركوا الأعمال قال لهم: افعلوا ما شئتم؛ لأن الله تعالى حقيقتكم، فأنتم هو وهو لا يُسئل عما يفعل، فيزنون ويسرقون ويشربون الخمر، حتى يؤول بهم ذلك إلى أن يخلعوا ربقة الإسلام والإيمان من أعناقهم بالزندقة والإلحاد، فمنهم من يقول بالاتحاد، ومنهم من يدَّعي في ذلك الإفراد، ثم إذا طُلبوا بالقصاص وسُئلوا عن منكراتهم التي فعلوها يقول لهم: أنكروا ولا تمكنوا من أنفسكم؛ فإنكم ما فعلتم شيئًا، وما كان الفاعل إلا الله، وأنتم أنتم ما هو على اعتقاد الناس، واليمين على نية المستحلف، فيحلفون أنهم لم يصنعوا شيئًا، وقد يناجيهم في لباس الحق فيقول لأحدهم: إنني أنا الله وقد أبحت لك المحرمات فاصنع ما شئت، أو فاصنع كذا وكذا من المحرمات فلا إثمٌ عليك، وكل هذا لا يكون غلطًا إلا إذا كان إبليس هو الظاهر عليهم، وإلا فالحق سبحانه وتعالى بينه وبين عباده من الخصوصيات والأسرار ما هو أعظم من ذلك.

ولمواجيد الحق علامات عند أهله غير منكورةٍ، وإنما تلتبس الأشياء على من لا معرفة له بها مع عدم العلم بالأصول، وإلا فمثل هذه الأشياء لا تكاد تخفى على من له معرفة بالأصول.

ألا ترى إلى حكاية سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي لما تجلَّى لـــه، وملأ لـــه ما بـــين الخافقين نورًا وهو في البادية، وقال لـــه: يا عبد القادر إنني الله، وقد أبحت لك المحرمات فاصنع ما شئت، فقال له: كذبت فإنك شيطانٌ، فلما سُئل عن ذلك وقيل له: بماذا علمت أنه شيطانٌ؟ فقال: بثلاث علامات كل واحدةٍ منها تكفي:

أحدها: أني أدركت النور الذي ظهر لي به والله تعالى لا يُدرك بالأبصار؛ لقوله تعالى: ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام:103].

ثانيها: كان كلامه لي عن جهةٍ والله سبحانه لا جهة له.

وثالثها: أمره لي بالفحشاء والله تعالى يقـــول: ﴿**إِنَّ اللَّـــهَ لاَ يَـــأْمُرُ بِالْفَحْشَـــاءِ**﴾ [الأعراف:28]، فلما أمرني هذا اللعين بذلك علمت أنه شيطانٌ يريد أن يغويني.

على أن نفس مثل هذا قد يجري لعباد الله مع الحق كما جرى لأهل بدر وغيرهـــم، وهو مقامٌ لا يُنكر لكن لا بدَّ له من معضدٍ، ويكفي هذا القدر من بيان أمر إبليس لعنه الله وتنوعه، وإلا لو أخذنا في بيان تنوعه في مظهرٍ واحدٍ من هذه السبعة بكماله ملأنا مجلدات كثيرة كما يظهر لأعلى الطبقات، وهي طبقات العارفين فضلاً من الأدنى، فإنه يقـــدر أن يظهر على الأدنى بكل ما يظهر به على الأعلى ولا عكس، فيأتي بعض العارفين ويظهـــر عليهم تارة من حيث الاسم الإلهي، وتارة من حيث الوصف، وتارة من حيث الـــذات، وتارة من حيث العرش، وتارة من حيث الكرسي، وتارة من حيث اللوح، وتـــارة مـــن حيث القلم، والحاصل أنه يظهر عليهم في كل مظهرٍ.

ومن لم يركب في سفينة الشريعة أغرقه إغراقًا لا ينجو منه أبد الآباد؛ لأن تنوعاتها لا يعرفها إلا آحاد الأولياء، فإذا عرفه الولي صار ما كان يريد أن يغويه به هدايـــة في حـــق العارف، ويتقرَّب به إلى الحضرة الإلهية، هكذا فعليك يا أخي بسفينة الشريعة والركوب فيها عند بداية وساوس الجن ونهايتها، واحذرْ مما يطلب بها من الكنوز وغيرها؛ فإن ذلك كله وساوس وتخيلات ضرها أقرب من نفعها في البدايات والنهايات.

وليكن هذا آخر الكلام على هذا البحر مع أني أطلت الكلام فيه للاحتيـــاج إليـــه، واعلم أن المقصود أبدًا من هذه البحور وغيرها إنمـــا هـــو معـــارف الله، والاعتبـــار في مصنوعاته، وإظهار العجز عن معرفة الحكمة فيها مع العلم بأنها محشوة من الحكمة البالغة التي لا يطَّلع عليها إلا صانعها، فليعتبر المرء فيما حكم الله به على الجن والإنس وغيرهما.

السابع عشر: ((بحر الإنسية))

وأصله من القرآن والحديث كثير، قال تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ*عَلَّمَ القُرْآنَ*خَلَقَ الإِنسَانَ**﴾ [الرحمن:1، 2، 3].

وقال: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات:21]، وغيره.

وهذا هو البحر الذي لا ساحل له كما قيل:

النـــــاس بحـــــرٌ عميـــــقٌ والبعـــــد عنـــــهم ســـــفينة
وقـــد نصـــحتك فـــاخترْ لنفســـــك المســـــتكينة

ومن عمقه أن من غاصه لا يدري حاله، بل هو بحر البحور الـذي يتقلـب فيهـا وتتقلب فيه مدى الدهور، ويكفيه أن الله تبارك وتعالى جعله خليفة في الأرض، حتى كأنه فيها له جميع البسط والقبض، وأنه نفخ فيه من روحه، فحصلت له بتلك النفخة الأوصاف التي لم تجتمع في غيره وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحيـاة، والسـمع، والبصـر، والكلام، والعقل العاقل للأشياء التي لا يعقلها سواه، ويكفيه أنه يعقل صفاته تعالى جميعًا على الوصف الآتي بالشرع، وليس يوجد ذلك في غيره من الحيوانات، ويكفيه أيضًا أنـه تعالى جعله أرضيًّا سماويًّا بهيميًّا ملكيًّا.

قال قتادة: خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهواتٍ، وخلق البهائم شهوات بلا عقـول، وخلق الإنسان وجعل لـه عقلاً وشهوةً، فمن غلب عقله على شهوته فهو من الملائكةً، ومن غلبت شهوته على عقله فهو من البهائم، ونقل الطباع من البشـرية إلى الملكيـة لا يكون إلا بالمجاهدات والمكابدات وارتكاب مشاق الطاعات، حتى تصفو النفس من كدر الشهوات، وجعل الله تعالى الإنسان كالراعي للملكة الدنيويـة، وجعـل بعدلـه قيـام السماوات والأرض.

وبحر الإنسانية لو تتبعنا تفاصيله لاحتجنا إلى مجلداتٍ كثيراتٍ يقينًا، وسيأتي إن شاء الله بعض ما انطوى عليه عند قولي: **(هناك تشهد السما والعرشا).**

ومن استغرقه من بحر الإنسية وجد الأسرار المتخالفة التي وُجد عليها الإنسان، فمنعته من السكون على شيءٍ حتى سُمِّي إنسانًا لكثرة نسيانه، وفهم معنى عدم سـكونه عـن غيره، وكثرة تأنسه به حتى سُمِّي إنسانًا لكثرة تأنسه، فافهمهما فإنهما دقيقان، ومن ذلك

المعنى تريد أن تنخلع عنه ربقة الشرع، فإن لم يركب في سفينته غرق غرقًا لا يمسك صاحبه نفسه عن شيء، ولا يريد أن يتدارك شيئًا حتى يظن أنه لا توبة عليه مما فات، ولا عليه أن يمسك نفسه عن شيءٍ هو آت، وإذا ركب في سفينة الشريعة شاهد نفسه عبدًا مستخلفًا في رعية مالكه، ومن الرعية نفسه، وإنه إن لم يحكم فيما هو مستخلفٌ فيه بأمر مالكه خاف من غضبه، ومن عزله عن الوجه الذي لا يرضى، فبسبب ذلك يخاف من مالكه ويتأدَّب معه بامتثال أمره، واجتناب نهيه، ويتدارك الفوائت بالتوبة، ويعزم على الامتثال في الآتي ولو كان رائيًا نفسه أنه لا يبلغه.

***

الثامن عشر: «بحر السر المكنون»

أي المصون، قال تعالى: ﴿**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**﴾ [الواقعة:78]: أي مصون عن غير المقربين من الملائكة: أي لا يطلع عليه من سواهم وهو اللوح المحفوظ.

وقال ﷺ: «**إنَّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله** ﷻ[1]»، كما في كشف الغمة.

واعلم أن هذا البحر سر مكنون عن العامة: أي مستور لغموضه؛ لأن منشأه من سر القبضة التي نشأ منها آدم عليه السلام من كل أجزائها في خبرٍ طويلٍ معلومٍ عند الناس، ومنزلة هذا البحر مما قبله منزلة الروح من الجسد، ولذلك سُمِّي بحر السر المكنون، ولنشر إلى طرفٍ قليلٍ من هذا البحر؛ لكون الخوض في كثيره مما لا طائل تحته.

فأقول وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء: أي وسط الطريق: إن الله تعالى لما جاءه الملك بالقبضة رشها بالماء الذي في الجنة، وأخذها وخمرها بيديه.

وهو قوله: ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص:75]، وكان الحق قد أودع عند بعض ملائكته ودائع لآدم، وقال لهم: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ**﴾ [ص:71]، وهذه الودائع التي في أيديكم له، فإذا خلقته فليؤدِّ كل واحدٍ منكم ما عنده مما أمّنتكم عليه، ثم إذا سوَّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجدوا إلا إبليس، فعُوتب بما عُوتب به أعاذنا الله، فلما خمر الحق تعالى بيديه طينة آدم حتى تغيَّر ريحها وهو المسنون، وجعل ظهره

(1) رواه الديلمي في الفردوس (210/1)، وذكره المناوي في فيض القدير (326/4).

محلاً للأشقياء والسعداء من أولاده، فأودع فيه ما كان في قبضتيه، فإنه سبحانه أخبرنا أن في قبضة يمينه السعداء، وفي قبضة اليد الأخرى الأشقياء، وكلتا يدي ربي يمين، وقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، فأودع الكل طينة آدم ، وجمع فيه الأضداد لحكم المجاورة.

وأنشأه على الحركة المستقيمة، وجعله ذا جهاتٍ ست:

الفوق: وهو ما يلي رأسه.

والتحت: وهو ما يلي رجليه.

واليمين: وهو ما يلي جانبه الأيمن.

والشمال: وهو ما يلي جانبه الأضعف عن مقابله.

والأمام: وهو ما يلي وجهه.

والخلف: وهو ما يلي قفاه.

وصوَّره وعدله وسوَّاه، ثم نفخ فيه من روحه المضاف إليه، فحدث عند هذا النفخ بسريانه في أجزائه الجناس الأخلاط التي هي الصفراء والسوداء والدم والبلغم.

فكانت الصفراء عن الركن الناري الذي أنشأه الله منه في قوله تعالى: ﴿**مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾ [الرحمن:14].

وكانت السوداء عن التراب وهو قوله: ﴿**خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ**﴾ [آل عمران:59].

وكان الدم من الهواء، وهو قوله: ﴿**مَّسْنُونٍ**﴾ [الحجر:26].

وكان البلغم من الماء الذي عجن به التراب.

وهذه الطبائع الأربع هي مظهر الصفات الأربع، فالإرادة مظهرها الحرارة المتحركة.

والبرودة مظهرها العلم، كما أشار إليه ﷺ بقوله: «**فوجدت بردها في ثديي فعلمت علم الأولين والآخرين**[1]».

(1) رواه الترمذي (367/5)، وأحمد في المسند (378/5)، والدارمي في السنن (170/2)، والطبري في التفسير (48/27)، بنحوه.

واليبوسة مظهرها القدرة، ولذلك صار لها الصلب والقوة.

والرطوبة مظهرها الحياة المنفوخة فافهم.

ولذلك صار لــه الجذب والهضم والمسك والرفع، وجعله دراكًا حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا متكلمًا سميعًا بصيرًا على حدٍّ معلومٍ معتاد في اكتسابه، وتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم إنه سبحانه ما سمَّى نفسه باسمٍ من الأسماء إلا وحصل للإنسان من التخلق بذلك الاسم حظًّا منه؛ ليظهر به في العالم على قدر ما يليق به.

ولذلك تأوَّل بعضهم قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**[1]» على هذا المعــنى، وأنزله خليفة عنه في أرضه؛ إذ كانت الأرض من عالم التغيير والاستحالات بخلاف العالم الأعلى، ولو تتبعت تفاصيل هذا البحر لأتممت فيه علوم الأولين والآخرين وما تم هو.

ومن استغرقه هذا البحر ادَّعى ما لا ينبغي ووقع فيما لا ينبغي إن لم يركب في سفينة الشريعة، وأما إن ركبها فإنه ينجو، ويعلم أن ما ستره الله لا ينبغي طلب التطلع إليه، ومن أطلعه الله على شيءٍ منه فلينظره بما نظره الله به من عين الشريعة ليقابل بها الخلق، وينظره بما نظره به من عين الحقيقة مع علمه أنها لا يحدث بها ولا يؤخذ منها إلا شيء أمــر بــه الشرع؛ لأن به عن المكاره يتدرع.

ولنكتفي بهذا من الكلام على السر المكنون؛ لأنه جعله الله عن غير أهلــه مصــون، وجعلنا الله مما علمه وغيره من الفنون.

❋ ❋ ❋

التاسع عشر: «بحر الجنان»

وأصله في القرآن كثير وفي الحديث كذلك، واعلم أن الجنة هي دار النعمــة، وهــي مظهر الرحمة الواسعة التي لا حد لها.

والجنة نوعان: الأولى: جنة نعيم في الآخرة.

والثانية: جنة عرفان في الدنيا.

---

(1) رواه البخاري (2299/5)، ومسلم (2017/4)، وأحمد في المسند (315/2)، وابن حبان في صحيحه (18/13).

وإليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46]، ولا يمكن وصف اتساعهما ولا إحداهما، ويكفي من نعت وسع جنة الآخرة قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:21].

ومن وسع جنة الدنيا أنها محل لمعارف الله التي لا تتناهى، ولنقتصر الآن على بعض الكلام على جنان الآخرة؛ لأن جنان المعارف كل هذا الكلام عليها، وليس المقصود منها إلا هي ولا ينحصر عددها.

وأما الجنان في الآخرة ولو لم يعلم قدرها فهي محصورةٌ في ثمانية، ولكل واحدةٍ من هذه الجنان معنى خاص بها، والناس فيها على قدر أحوالهم، فمنهم من يدخل من جنة واحدة لا غيرها، ومنهم من يدخل من جميع الجنان، ولذلك لما ذكر رسول الله ﷺ الأبواب الثمانية قال أبو بكر: «**يا رسول الله، وما على الإنسان أن يدخل من الأبواب كلها، قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر**[1]».

فالجنة الأولى:

تُسمَّى جنة السلام، وتُسمَّى جنة المجازاة، خلق الله تعالى باب هذه الجنة من الأعمال الصالحة، تجلَّى الله تعالى على أهلها باسمه الحسيب، فصارت جزاءً محضًا بالأعمال الصالحة، قال الله تعالى في حق أهل هذه الجنة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى*وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى*ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى﴾ [النجم:39، 40، 41]، ولا يدخل أحدٌ هذه الجنة إلا بالأعمال الصالحة، فمن لا عمل له فلا دخول له فيها، وتُسمَّى هذه الجنة باليسرى.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل:5، 6، 7]، وسبب دخولها بقليلٍ من الأعمال المقبولة حتى بالإيمان وحده ولو بعد طول المدة.

والجنة الثانية:

جنة المكاسب. وهي فوق الأولى وأعلى منها.

---

(1) رواه البخاري (1340/3)، وأحمد (449/2)، وابن أبي شيبة في المصنف (353/6)، والبيهقي في الكبرى (171/9).

والفرق بين جنة المكاسب وجنة المجازاة أن جنة المجازاة بقدر الأعمال فلها مقابلة، وجنة المكاسب ربح محض؛ لأنها نتائج العقائد والظنون الحسنة بالله تعالى، ليس فيها شيء على طريق المجازاة بالأعمال البدنية، تجلَّى الله تعالى على أهل هذه الجنة باسمه البديع، فظهرت لأهل العقائد الحسنة ابتداعًا إلهيًّا، فبابها مخلوق من العقائد والظنون الحسنة بالله والرجاء له، ولا يدخلها إلا من كانت فيه هذه الخصال.

والجنة الثالثة:

جنة المواهب، وهي أعلى مما قبلها؛ لأن مواهب الحق تعالى لا تتناهى، فيهب لمن لا عمل له ولا عقيدة أكثر ممن له أعمال كثيرة وعقائد وغير ذلك، تجلَّى الله تعالى على أهل هذه الجنة باسمه الوهَّاب، فلا يدخلها أحدٌ إلا بموهبة الله تعالى، وهي الجنة التي قال ﷺ فيها: «**لن يدخل أحدكم الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول؟ فقال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**[1]».

وهذه الجنة هي أوسع الجنان، وهي أكثرها أهلاً؛ لأنها محل الشفاعة الإلهية، وهي المرموز إليها بسر قوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:156].

وهي المسمَّاة في القرآن بجنة المأوى؛ لأن الرحمة مأوى الجميع.

قال الله تعالى: ﴿**أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة:19]، ولم يقل: جزاء؛ ليكون تنبيهًا على أنه يدخلهم جنة المواهب لا جنة المجازاة، ولا جنة المكاسب فهي نزلٌ له.

والموهبة غير مختصَّةٍ بمن عمل الصالحات، حتى أنه قيل: إن الرحمة لتتجلى في النار بنبت شجر الجرجير فيها، فتزول النار بعد وضع الجبَّار فيها قدمه، فافهم والله تعالى أعلم.

والجنة الرابعة:

تُسمَّى جنة الاستحقاق، وهي أعلى مما قبلها، ولا يدخلها إلا من استحقها بالفطرة الأصلية من الصبيان المجانين والبله، تجلَّى الله تعالى على أهلها باسمه الحق، فامتنع أن يدخلها إلا من يستحقها بطريق الأصالة والفطرة التي فطره الله عليها، أو من تزكَّى

(1) رواه أحمد في المسند (451/2) (466/2)، وابن حبان في الصحيح (60/2)، والطبراني في المعجم الأوسط (332/6).

بالأعمال الصالحة، والمجاهدة والرياضة والمعاملة الحسنة مع الله حتى رجعت روحه إلى الفطرة التي فطره الله عليها.

والجنة الخامسة:

تُسمَّى بالفردوس، وهي جنة المعارف المختصَّة بأهلها الذين هم أهل الشهادة الكبرى، وهي أعلى مما قبلها، وأهلها قُتلوا بمحبة الله بسيف الفناء عن نفوسهم، وأهل هذه الجنة أقل من أهل جميع الجنان المتقدمة، وكلما علت الطبقات من الجنة كان كذلك.

والجنة السادسة:

تُسمَّى جنة الحظيرة القدسية، وتُسمَّى الفضيلة، وأهلها هم الصديقون الذين أثنى الله عليهم بأنهم عند مليك مقتدر، فلا يدخلها إلا من عرف عرفانًا ليس فيه استدلال على الله بغيره سواء: أي غير وأهلها أقل عددًا ممن قبلهم، ويُسمُّون أهل اللذة.

والجنة السابعة:

يُقال لها جنة السلام، وتُسمَّى الدرجة الرفيعة، وأهلها هم المقرَّبون من محل التحية الربَّانية، وهي لأهل التخلق بالخلائق الإلهية من الأسماء والصفات، وهم أقل عددًا ممن مضى ذكرهم.

والجنة الثامنة:

تُسمَّى جنة الوسيلة، وتُسمَّى المقام المحمود، وهي جنة الذات التي أعطاها الله لرسوله محمد ﷺ، ولا يدخلها إلا هو؛ لأنه ذات الوجود وحقيقته، أو من دخلها به؛ لأن بابها لا يفتحه إلا هو، ولو تتبعت ما في كل جنةٍ من الدرجات وما لأهلها من النعيم واللذات لاحتجت إلى كثيرٍ من المجلدات؛ لأن رحمة الله لا يعلم سعتها إلا هو.

ومن استغرقه بحر الجنان وجد جميع العالم جوهرًا فردًا غير منقسمٍ، وفهم معنى: ﴿**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**﴾ [مريم:95]، وقد علم أن الرحمة وسعت كل شيءٍ، وربما نبذ كل عملٍ إن لم يركب في سفينة الشرع، ولأجل ذلك ربما زاغ عن غير شهود رحمة الله، وإن تفضَّل الله عليه وركب في سفينة الشريعة نال ما يريده من جنة المعارف، وجنة النعيم جعلنا الله من أعلى أهلها إنه هو الكريم الرحيم.

واعلم أني لولا خوف التطويل الممل لأتيتك في هذا الكتاب بما لا يخل، لكني لم أضعه إلا للخاصة الذين يستدلون على الكل بالبعض، ويرضون من التعبير بالفرض.

* * *

البحر الموفي عشرين: «بحر النيران»

أعاذنا الله من نيران الدنيا والآخرة، والأصل فيه من القرآن والحديث كثير.

واعلم أن النار مظهر الغضب أعاذنا الله منه، وقد جعلها الله سبع دركات، كل واحدةٍ أسفل من التي قبلها وأشد.

والفرق بين الدرجات التي للجنة والدركات التي للنار أن الدرجات يرتقي من أدناها لأعلاها، والدركات ينسفل صاحبها من أعلاها لأسفلها، فبسبب ذلك صار أعلى الجنة أحسن من أدناها، وأسفل النار أشد من أعلاها.

فالدركة الأولى من النَّار:

تُسمَّى لظى، خلق الله بابها من ظلمة الجرم بالمعصية والذنب، وهو وادٍ له ثلاثمائة وستون ألف درك بعضها تحت بعض، وأهله أهل المعصية والذنب الذي ليس لمخلوق فيه حق، وهو أمرٌ بين الله وبين عبده كالكذب، والرياء، واللواط، وشرب الخمر، وترك الأوامر المفروضة، والتسهيل في حرمات الله تعالى، فهؤلاء هم المجرمون.

قال تعالى: ﴿**يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ *وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ*وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ*كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى*نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى* تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى*وَجَمَعَ فَأَوْعَى**﴾ [المعارج:11: 18].

يعني أدبر عن طاعة الله وتولى عن ذكره، وعذاب أهل هذه الطبقة أليم، وهو مع شدته أخف من عذاب جميع أهل الطباق.

والدركة الثانية من النَّار:

تُسمَّى بالجحيم، وهو واد له سبعمائة ألف وعشرون ألف درك بعضها تحت بعضٍ، وهو مسكن أهل ظلمة الفجور الذين طغوا في الأرض بغير الحق على عباد الله تعالى، فأخذوا أموالهم، وسفكوا دماءهم، وأكلوا في أعراض الناس بالسبِّ والغيبة.

وأمثال ذلك، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار:14].

والدركة الثالثة:

تُسمَّى بالهاوية، وهي واد له ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعون ألف درك بعضها تحت بعض، وهو لأهل البخل، وطلب التكثير من المال، ومن الحقد، والحسد، والشهوة، وحب الدنيا، حتى خفَّت موازينهم من الحسنات، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ*فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾ [القرعة:8، 9].

والدركة الرابعة:

تُسمَّى بالأسفل، وهو واد له ألف ألف وثمانمائة ألف وثمانون ألف درك بعضها أسفل من بعض، وهو لأهل النفاق، والرياء، والدعاوى الكاذبة، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ [النساء:145].

والدركة الخامسة:

تُسمَّى بسقر، وهو وادٍ له خمسمائة آلاف ألف وسبعمائة ألف وستون ألف درك بعضها تحت بعض، وهو لأهل التكبر فيه، أذل الله الفراعنة والجبابرة الذين يطلبون الاستعلاء بغير حقٍّ، قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَدْبَرَ**﴾: أي عن عبادة الله، ﴿**وَاسْتَكْبَرَ**﴾: أي طلب التكبر، وأراد ألا يعبد الله فقال: ﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ*إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ**﴾، حتى لا يلزمه الإيمان به، ﴿**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**﴾ [المدثر:23: 26].

والدركة السادسة:

تُسمَّى بالسعير، وهو واد له أحد عشر ألف وخمسمائة ألف وعشرون ألف درك، وأهل هذه الطبقة هم أهل الشيطنة: أي أهل الفتن، والغضب، والشهوة، والمكر، قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:5].

والدركة السابعة:

تُسمَّى بجهنم، وهو واد دركاته ثلاثة وعشرون ألف ألف درك وأربعون ألف درك، وأهل هذه الدركة أهل الكفر، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾ [البينة:6].

ومن استغرقه بحر النيران علم أن الغضب فرع، وأن الرحمة أصل وهي صفة ذاتية، ولذلك تسمَّى الله بالرحمن، و لم يتسمَّ بالغاضب؛ لأن الغضب صفة أوجبها العدل، والعدل

لا يكون إلا لحكمٍ بين اثنين، وليس معه تعالى ثان، فبسبب ذلك ربما زلق صاحبه عن الشريعة زلقًا لا يمكن وصفه، وكان له من اللذة في البلاء عجب لا يوصف، ووجد تلك اللذة غير مشوبةٍ بألمٍ قط، بل كأنها نعمة محضة غير مشوبةٍ بنقمةٍ فيهلك مع الهالكين أعاذنا الله، وأحبتنا من صنوف البلاء ودرك الشقاء، وإن تفضَّل الله عليه وركب في سفينة الشريعة نجا مع الناجين، جعلنا الله منهم آمين، والحمد لله الذي جعل دار الدوام على الخلق يقظة ليس فيه حجاب عن الله، قال ﷺ: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا** [1]».

***

البحر الحادي والعشرون: «بحر الإحاطة»:

والأصل فيه: ﴿**وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ**﴾ [الجن:28]، واعلم أن هذا البحر هو بحر الإحاطة بهذه البحور كلها وغيرها؛ لأنه بحر النور المحمدي الذي هو أصل لجميع الأنوار والظلمات، قال ﷺ: «**أول ما خلق الله نور نبيِّك يا جابر**[2]»، فهو المرآة التي ظهرت فيها الأسماء والصفات، وصاحب هذا البحر هو الإنسان الكامل، وهو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحدٌ منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين.

ثم له تنوعات في ملابس متشتات باعتبار ما يُلبس مع كل نوعٍ من المخلوقات، وله أسام متعددات، ولذلك كثيرًا ما يراه الشخص في المنام باسمٍ ولا يظن أنه هو، وهو هو، وربما يقع له ذلك يقظة، وسر هذا الأمر تمكنه ﷺ من التصور، وكثيرًا ما يرى صاحب هذا المقام في صورة النبي ﷺ، ويرى النبي ﷺ في صورته، وله تنوعات لا تُدرك في الأسماء والصفات، وهذا البحر لا تتبع تفاصيله، ولا تُفشى أسراره وأقاويله؛ لأنه كل الوجود، ومنه الصدور والورود، وليس لمشاهده إلا أن يقول سبحان الغفور الودود؛ لأنه يشاهد كل ذرةٍ من ذرَّات الوجود أحاط بها عمَّا تليها الرب الملك المعبود.

واعلم أن هنا كثير بحور لا تُفشى أسراره، ولا تُذاع أخباره، إلا أنها كلها مرجعها لهذه البحور المتقدمة، بل منها ما لا يمكن أن تجري فيه الفلك، ولا الفلك، وإلى ذلك أشرت بقوله:

---

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (56/5)، والعجلوني في كشف الخفا (414/2).

(2) تقدم تخريجه.

فهنـــا بحـــورٌ زاخـــراتٌ لا الفلـــك	يجري بهـــا أضـــواؤها مثـــل الحلـــك
فإذا وصلت بهـــا لتحـــذر ســـبحها	فسباحة لو أمكنـــت يجـــري الفلـــك
واحذرْ تـــرم ســـر بابهـــا بأرضـــنا	فســـبيلها بســـمائها ذات الحبـــك
لكن فغبْ عنـــها وعنـــك لتســـلكا	ليس العجب ممن هلك بل من ســـلك

وإنما يسلك السالك من هذه البحور وغيرها باتِّباع الشريعة والركوب في ســـفينتها؛ لأن الله أدرى بمصالح خلقه، ومن مصالحه عليهم أن تعبدهم بشرائعه في هـــذا الوجـــود المنوط بالدنيا، وهو الغني المعبود.

ومن استغرقه بحر الإحاطة مع التخلق بالخصائص المحمدية فهو قطب الوجود الذي دار عليه ما حد منه وما ليس بمحدودٍ، وإن لم يقدر على التخلق بها فهو من مطلق الأفـــراد الذين هم بمنـــزلة القطب، إلا إنه حاز بالعبودية المحضة عنهم التصرف الكوني، وذلك لما حصل له من إكماله الخلق المحمدي؛ لأنه له التصرف في البدء والختام، كما يشـــير لـــه: «**كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين**[1]»، فعليه أفضل الصلاة والسلام.

***

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (54/5)، والعجلوني في كشف الخفا (173/2).

التنبيه الثاني: في الأنوار

اعلم أن النور معناه الهدى، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وهو سلطان المفسِّرين عند قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور:35]: أي هادي أهل السموات والأرض، فهم جنوده تعالى يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة ينجون، ولما وصلوا إلى نور الهداية بتوفيقه تعالى سمَّى نفسه باسم النور جريًا على مذهب العرب؛ فإن العرب قد تُسمِّي الشيء الذي من الشيء باسمه كما يُسمَّى المطر سحابًا؛ لأنه يخرج منه ويحصل به، فلما حصل نور الإيمان والهداية بتوفيقه سمَّاه بذلك الاسم، ويجوز أن يعبر عن النور بالهداية، وعن الهداية بالنور؛ لما كان أحدهما يحصل من الآخر.

قال الله تعالى: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [النحل:16]، فلما اهتدوا بنور النجم جعل النجم كالهادي لهم، وجعلهم من المهتدين بنوره، وعلى هذا سُمِّي القرآن نورًا، والتوراة نورًا، بمعنى الاهتداء بهما فعلى هذا شبهت الهداية بالنور في كونها سببًا للوصول إلى المطلوب.

وقال الإمام الغزالي قدس سره في شرح الاسم النور، والظاهر الذي به كل الظهور: فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يُسمَّى نورًا، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود، ولا ظلام أظلم من العدم، فالبريء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود جدير بأن يُسمَّى نورًا، والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته، فهو نور السموات والأرض، فكأنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس النيِّرة، فلا ذرة من وجود السموات والأرض وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدها[1].

وفي التأويلات النجمية[2]: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور:35]: أي مظهرهما من العدم إلى الوجود، فإن معنى النور في اللغة: الضياء، وهو الذي يبين الأشياء ويظهرها للأبصار، وذلك أنه تعالى نور الماهيات المعدومة بأنوار الوجود، وأظهرها من كتم العدم وفيض الوجود.

---

(1) وانظر: المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (ص59).

(2) يسر الله لنا إتمام تحقيقه، وهو للشيخ نجم الدين كبرى، وتكملته للسمناني، ويعرف التفسير أيضًا بعين الحياة.

كما قال ﷺ: «**إنَّ الله خلق الخلق في ظلمه ثم رش عليهم من نوره** [1]»، فخلق ها هنا بمعنى التقدير، فإن التقدير سابقٌ على الإيجاد، ورش النور: كناية عن إفاضة الوجود على الممكنات، والممكن يُوصف بالظلمة، فإنه يتنوَّر بالوجود، فتنويره إظهاره، واعلم أن النور على أربعة أوجه:

أولها: نورٌ يظهر الأشياء للأبصار، وهو لا يراها كنور الشمس وأمثالها، فهو يظهر الأشياء المخفية في الظلمة ولا يراها.

وثانيها: نور البصر، وهو يظهر الأشياء للأبصار لكنه يراها، وهذا النور أشرف من الأول.

وثالثها: نور العقل، وهو يظهر الأشياء المعقولة المخفية في ظلمة الجهل للبصائر، وهو يدركها ويراها.

ورابعها: نور الحق تعالى، وهو يظهر الأشياء المعدومة المخفية في العدم للأبصار والبصائر من الملك والملكوت، وهو يراها في الوجود كما كان يراها في العدم؛ لأنها كانت موجودة في علم الله، وإن كانت معدومة في ذواتها، فما تغير علم الله ورؤيته بإظهارها في الوجود، بل كان التغير راجعًا إلى ذوات الأشياء وصفاتها عند الإيجاد والتكوين، فتحقيق قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ مظهرهما ومبديهما وموجدهما من العدم بكمال القدرة الأزليَّة.

وفي تفسير ابن العربي: النور هو الذي يظهر بذاته وتظهر الأشياء به، وهو مطلقًا اسم من أسماء الله تعالى باعتبار شدة ظهوره وظهور الأشياء به، كما قيل:

خفي لإفراط الظهور تعرضت … لإدراكه أبصار قوم أخافش
وحظ العيون الزرق من نور وجهه … كشدة حظه للعيون العوامش

ولما وجد بوجوده وظهر لظهوره كان نور السماوات والأرض: أي مظهر سماوات الأرواح، وأرض الأجساد، وهو الوجود المطلق الذي وجد به ما وجد من الموجودات والإضاءة.

---

(1) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (198/4)، وذكره ابن كثير في التفسير (173/2).

وفي القاموس وشرحه: «**تاج العروس**»: النور بالضم: الضوء أيًّا كان أو شعاعه وسطوعه كذا في المحكم.

وقال الزمخشري: الضياء أشد من النور، قال تعالى: ﴿**جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا**﴾ [يونس:5]، وقيل: الضياء ذاتي والنور عرضي، كما حققه الفناري في حواشي التلويح.

وفي البصائر للقاموس: النور: الضياء والسناء الذي يعين على الأبصار، وذلك ضربان: دنيوي، وأخروي، فالدنيوي ضربان: معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأنوار الإلهية كنور العقل ونور القرآن، ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيِّرة كالقمرين والنجوم النيِّرات، فمن النور الإلهي قوله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ**﴾ [المائدة:15]، وقوله: ﴿**نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [النور:35].

ومن النور المحسوس نحو قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا**﴾ [يونس:5]، وتخصيص الشمس بالضوء والقمر بالنور من حيث أن الضوء أخص من النور.

ومما هو عام فيهما قوله: ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ [الأنعام:1]، وقوله: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ [الزمر:69].

ومن النور الأخروي قوله: ﴿**يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الحديد:12]، جمعه أنوار ونيران، عن ثعلب.

وقد نار نورًا بالفتح ونيارًا بالكسر، وهذه عن ابن القطاع.

وأنار واستنار ونور، وهذه عن اللحيان.

وتنور بمعنى واحد: أي أضاء، كما يُقال: بان الشيء وأبان وبيَّن وتبيَّن واستبان بمعنى واحد.

وقوله ﷻ: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾ [المائدة:15]، قيل: النور هنا هو سيدنا محمد ﷺ: أي جاءكم نبي وكتاب، وقيل: إن موسى عليه السلام قال وقد سُئل عن شيءٍ فقال: «**سيأتيكم النور**».

وقوله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف:157]: أي اتَّبعوا الحق الذي بيانه في القلوب كبيان النور في العيون، والنور الذي يبين الأشياء ويرى الأبصار حقيقتها، قال: فمثل ما أتى به النبي ﷺ في القلوب في بيانه وكشفه الظلمات كمثل النور.

وفي المصباح: النور: الضوء، وهو خلاف الظلمة، والجمع: أنوار، وأنار الصبح إنارة: أضاء، ونوَّر تنويرًا، واستنار استنارة كلها لازمة بمعنى، ونار الشيء ينور نيارًا بالكسر، وبه سُمِّي أضاء أيضًا فهو نيِّر، وهذا يتعدى بالهمزة والتضعيف، فإذا تمهَّد لديك هذا لغةً فاعلم أن الأنوار الإلهية لا لها حد كما لا حد لمن هي ناشئة منه.

وقد شاع في اصطلاح القوم: نور كذا ونور كذا بمعنى أنه الشيء الذي ظهر بذلك المعنى أو أظهره، ولا مشاحة في الاصطلاح لا سيما إذا أعانته اللغة، والأنوار كلها غير الحسيِّة المعروفة إنما هي معان كما في معنى كون النور بمعنى الهداية، وإني إن شاء الله أشير إلى أشياءٍ منها بها يستدل على غيرها.

منها ما جاء به شيخنا والدنا ﷺ في مطية المجد، ومنها ما جاء به في منظومة الأحوال، والجميع في كتب القوم رضي الله عنهم، مع ما أمكنني من الاختصار، حتى أني ربما لا أذكر إلا علاقة النور عن غيره من الأنوار؛ لأني إن أردت أن أتتبع ما يحمله نور واحد من المعاني لاحتجت إلى كثيرٍ من المجلدات، وذلك يأبى عنه ما نحن فيه من الاشتغالات.

واعلم أن البحور المتقدمة كلها أنوار، بل وكذلك غيرها من جميع الكائنات، فإنها أنوار على مكونها دالات، وهذا أوان الشروع في المقصود، وعلى الله اعتمادي في التوفيق لما يحبه في الصدور والورود(1).

(1) **فائدة**: قال الشيخ القاشاني: النور: كل وارد يطرد الكون عن القلب، ولا بد أن يكون عين الحق ينبوعه ، فلا يثبت معه الكون.

والضياء: رؤية الأغيار بعين الحق، فإن الحق بذاته نور لا يدرك ويدرك به، ومن حيث أسمائه نور يدرك ويدرك به، فإذا تجلى للقلب من حيث كونه يدرك به، شاهدت البصيرة المنورة الأغيار بنوره.

فإن الأنوار الأسمائية من حيث تعلقها بالكون مخالطة لسواده، وبذلك استتر بنهارها فأدركت، وأدركت بها الأغيار.

النور الأول من الأنوار: «نور الإسلام»:

قال تعالى: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلام فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ**﴾ [الزمر:22]، وقال: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلام**﴾ [الأنعام:125]، ومن علاماته: الاستسلام: أي الانقيـاد لمجاري أحكام الله والسرور بها، وعدم أذية المسلمين باللسان، أو باليد، كما في الحديث الصحيح: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** [1]»، ولذلك قال بعضهم: إن المسلم محبوبٌ للخلق.

النور الثاني: «نور الإيمان»:

قال تعالى: ﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن:11]، ومن علاماته: التصديق لله ورسوله وأوليائه في كل خبرٍ ورد عن الجميع، والأولياء فرع عن الأنبياء، فكما وجب الإيمان لما جاءت به الرسل كذلك يجب الإيمان بما جاء به الأولياء المحفظون، وكما سلمنا لما جاء به الأصل، كذلك نسلم لما جاء به الفرع، وقد يورث الإيمان الاستغراق في جلال الله، والمكث في إجلال الربوبية، والخشية من سطوة الألوهية، والاستظلال بظل العبودية.

النور الثالث: «نور الإحسان»:

والمراد به هنا الإحسان في العبادة، وذلك عرفه ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** [2]»، ووجوه الإحسان كلها مطلوبة من العبد على نفسه، وعلى جميع غيره قال تعالى: ﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة:195].

واعلم أن غاية الإحسان من العبد الفناء في الله، ومن المولى إعطاء الوجود الحقاني إياه، فعليك بالإحسان كل آنٍ وحينٍ؛ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

وقال تعالى: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن:60]: أي ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

---

(1) رواه البخاري (13/1)، ومسلم (65/1)، وأبو داود (4/3)، والترمذي (661/4)، والنسائي في الصغرى (214/5)، وأحمد في المسند (163/1)، (191/2).

(2) رواه البخاري (1793/4)، ومسلم (37/1)، وأبو داود (223/4)، الترمذي (6/5)، والنسائي (446/3)، وأحمد (27/1).

وعن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ**﴾ ثم قال: «**هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي**[1]».

قال الحسن: الإحسان أن يعم ولا يخص، فيكون كالمطر والريح والشمس والقمر.

ومن علامات نور الإحسان: وقاية الجسم من نار الشهوات، والقلب من رعونات الغفلات، والصبر على المضرات والبليات، والشكر على النعم والمسرَّات، ودفع الأذيات عن المخلوقات، وإيصال ما يمكن لها من الخيرات.

النور الرابع: «نور الخشية»:

وهو نورٌ يحصل به للصدر انشراح، ويزول به عن القلب الدرن: أي الأوساخ، وبه تحصل اللذة في مناجاة الله، والرغبة في زيادات أعمال البر في وجه الله، ويقع ذلك لصاحبه لأجل الطمع في أنه لله يصل، ويجد منه كل ما يؤمل، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ**﴾ [النور:52]: أي الظافرون بمقصودهم مع حصول السلامة.

النور الخامس: «نور تقوى الله»:

وهو نورٌ إذا سطع في القلب يظهر لصاحبه به ما ينشأ من العقوبة لأهل العصيان، ولذلك يورث لصاحبه انحجاز عن المخالفة حتى يراها كالنيران الواقفة، ومدحه في القرآن والحديث كثير، وأشهر من الشمس في رابعة النهار والسماء أصحا، فلا نطيل الكلام عليه إلا أن من أكثر منه كان أنجحا.

النور السادس: «نور العلم»:

وهو نورٌ إذا ظهر في قلب صاحبه كان له به تمييز بين حقائق الأمور وخصائصها، ويزيل عنه ظلمات الجهل، وبه غيبة عن الأسباب تنجلي، وقد يحصل به لصاحبه نوع من الخشية لا يوجد في غيره، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ**﴾

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس (337/4)، وذكره ابن كثير في التفسير (279/4)، بنحوه.

[فاطر:28]، وذلك أن مدار الخشية معرفة المخشي والعلم بشئونه، فمن كان أعلم بـــالله تعالى كان أخشى منه، كما قال ﷺ: ((**أنا أخشاكم لله وأتقاكم له**[1])).

وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز وابن سيرين برفع اسم الله، ونصب العلماء على أن الخشية استعارة للتعظيم، فإن المعظم يكون مهيبًا، فالمعنى إنما يعظمهم الله من بين جميع عباده، كما يعظم المهيب المخشي من الرجال بين الناس، وهذه القراءة إن كانت شـــاذة ولكنها مفيدة جدًّا، وجعل عبد الله بن عمر الخشية بمعنى الاختيار: أي إنما يختار الله مـــن بين عباده العلماء.

النور السابع: ((نور اليقين)):

وهو نورٌ إذا دخل في قلب صاحبه يورث لـــه تلاشي الخلق في عظم الخالق، ويمحو خوف الخلق من قلبه، ويمحو عنه الحرص والاستعجال في الطمع.

واعلم أنه تقدم بعض الكلام على علم اليقين وعينه وحقه، ويُقال: إن اليقين نفســـه علم يحصل به ثلج الصدور، ويُسمَّى برد اليقين، فهو العلم الذي يحصل به اطمئنان النفس، ويزول ارتيابها واضطرابها، ويُقال: العلم اليقيني هو العلم الحاصل بالإدراك الباطني بالفكر الصائب والاستدلال، وهذا للعلماء الذين يوقنون بالغيب، ولا تزيد هذه المرتبة العلمية إلا بمناسبة الأرواح القدسية، فإذن يكون العلم عينًا، ولا مرتبة للعين إلا اليقين الحاصل مـــن مشاهدة المعلوم، ولا تزيد هذه المرتبة إلا بزوال حجاب الأثنينية، فإذًا يكون العين حقًّـــا، ولا مرتبة للحق إلا الإدراك بأحدية جمعك: أي بحقيقتك المشتملة على المدركات الظاهرة والباطنة، والجامعة بين روحانيتك وجسمانيتك: أي يدركها بها إدراكًا يستوعب معرفـــة كل ما اشتملت عليه حقيقة المدرك من الأمور الظاهرة والباطنة.

[أنواع التجلي]

فالتجليات ثلاثة:

تجل علمي، وتجل عيني، وتجل حقي.

فالأول: كعلم الكعبة علمًا ضروريًّا من غير رؤيةٍ.

(1) رواه مسلم (781/2)، وأبو داود (312/2)، والنسائي (195/2)، وأحمد (67/6)، بنحوه.

والثاني: مثل رؤيتها من بعيدٍ.

والثالث: كدخولها، ويُقال: اليقين هو الحق الثابت المتيقن به، وإضافة العلم إلى اليقين إضافة الشيء إلى مرادفه، وإضافة العين إليه بمعنى الرؤية التي هي نفس اليقين، وإضافة الحق إليه فهو كما تقول في أمرٍ تؤكده: هذا يقين اليقين، وصواب الصواب، بمعنى أنه نهاية الصواب.

قال جامعه عفا الله عنه: وقد سنح لي معنى في الجمع يصح أن يكون مثالاً مضافًا للغفور السميع، وهو أن علم اليقين هو علم الله بالأشياء في أزله؛ لأنه العلم الثابت حقًّا، وعين اليقين هو إيجاده لها في الدنيا؛ لأنه العين الثابت حقًّا، وحق اليقين هو إيجاده لها في الآخرة، وإذاقته لها ما وعدها به حقًّا، ولله المثل الأعلى واستغفره؛ إذ هو الغفور الرحيم الأعلى، فافهم والله تعالى أعلم.

النور الثامن: «نور العقل»:

وهو نورٌ يُورث التفكر مع دوام الاعتبار في الإتقان للورى.

واعلم أن التفكر إعمال النظر في الشيء سواء في معناه أو في عقباه أو مبداه، والاعتبار: التعجب من الشيء، وهو نوعٌ من التفكر لكنه نوعٌ عظيمٌ، قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد:4] وقال: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى**﴾ [النازعات:26].

النور التاسع: «نور المعرفة»:

وهو نورٌ من علامته أنه يورث لصاحبه الانكماش عن الخلق، وله الحياء، وبه يعيش بالصدق، وأنه يفارق الانبساط، ويسكن عند افتقار العطية، ويؤتمن ويفارق الطيش والاضطراب، ولأجل طمأنينته استطاب.

ويعتمد على الذي عند الإله، وينسى نفسه وما سواه.

النور العاشر: «نور المحبَّة»:

وهو نورٌ يورث الشوق والمفارقة للخلق، وصاحبها طامع في الوصل، ناس في الفرع والأصل، وقلبه عن الكونين عذب وللمكون طلب.

وإذا رسمت في القلب تلاشت المصائب والمحن والمشقات لأجل ما هو فيه من محبة الحبيب وما له من المشاهدات.

النور الحادي عشر: «نور الحلم»:

وهو يورث العفو والصفح والتجاوز عن الانتصار، ولو كان لصاحبه ألف ألف من الأنصار، ويذيب للعداوة والحقد، وصاحبه محسوب من الصديقين، بل كاد أن يكون من النبيين.

النور الثاني عشر: نور الصبر:

وهو نورٌ مزيلٌ للجذع، ويكره صاحبه على الاستقامة حتى تكون كالطبع.

النور الثالث عشر: «نور الرِّضا»: وهو نورٌ يورث عذوبة الأمور الصعبة، وتحلو لصاحبه جميع المرارت، ويقيد الشرور بالقدر في كل ما جرى به في الدهر، حتى إن صاحبه سواء عنده الفقر والغنى، وما فيه الراحة وما فيه العنا، ويستوي عنده المنع والعطاء والنفع والضراء، وهو نورٌ تميز به قوم من أهل الصفاء الذين لهم النفع وليس لهم جفاء.

النور الرابع عشر: «نور القناعة»: وهو نورٌ تلاشى الطمع، ولإرسال الحرص قطع، وهو أثنى حلية بها يتحلَّى الذي من أهل المعارف يتجلَّى، ولنجعل هذا آخر الكلام على الأنوار المفاضة؛ لأني لو تتبعتها لكللت وما أكملتها؛ لأنه ما من وصفٍ حسنٍ إلا وهو ناشئ عن نورٍ يقذفه الله تعالى في قلب صاحبه، ينشأ له به ذلك الوصف ويتبعه به، وما من وصفٍ ينشأ من هذه الأنوار إلا وله حدٌّ، إذا بلغه المرء يكون أدبه فيه غض بصره عمَّا فوق ذلك، قال تعالى: ﴿**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق:3]، وقال: ﴿**وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ**﴾ [الصافات:164].

ولذلك أتممت هذا الكلام على هذه الأنوار المفاضة في عدد أربعة عشر؛ لأنه حد انتهاء ازدياد البدر، ولنصرف العنان إن شاء الله إلى الكلام على بعض أنوار غير مفاضةٍ، عبَّروا عنها بعباراتٍ اصطلحوا عليها فيما بينهم، لا يعرفها إلا من كان منهم، ولا يقولوها إلا لمن لا يصدر عنهم، ولكل قومٍ مصطلح فيما بينهم، كما اصطلح أهل علم الكلام على ألفاظٍ لا يعرفها إلا المتبحرون في علمهم، وكما اصطلح أهل النحو وأهل البيان وأهل الأصول على ألفاظهم المعروفة عندهم: بل وغير وغير ولا مشاحة في الاصطلاح.

قال صاحب الرسالة القشيرية فيها[1]: اعلم أن المعلوم أن كل طائفةٍ من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها فيما بينهم، وانفردوا بها عمن سواهم، تواطئوا: أي توافقوا عليها لأغراضٍ لهم فيها من تقريب للفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم: أي مقاصدهم بإطلاقها.

قال شارحها: وحاشيته كأهل أصول الدين حيث اصطلحوا على إطلاق العالم بفتح اللام على ما سواه تعالى، والحيز: أي على المكان، والوقت: أي على حركة الفلك، والجوهر: أي على ما قابل العرض، والكون: أي على الوجود والحصول، والحال: أي الصفة القائمة بالشخص، وغيرها لمعانٍ أرادوها، وربما وافق بعضها مقتضى اللغة على وضعها الحقيقي، وهذه الطائفة يعني طائفة الصوفية التي هي من جملة العلماء يستعملون ألفاظًا فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم: أي خالفهم في طريقتهم؛ لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب عنهم؛ غيرةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها.

وهذا أوان الشروع في المقصود في هذه الألفاظ، وفَّقنا الله في الصدور وفي الورود.

فمنها: الوقت:

وهو نورٌ يظهره الله لعباده كائنًا ظرفًا لهم، يتجلَّى فيه الحق تعالى بأسمائه الأربعة التي هي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وذلك لأنه ما من وقتٍ إلا وهو أول بالنسبة لغيره من الأوقات آخر، كذلك ظاهر للعباد باطن عنهم إدراكه، وهو متجدد أبدًا كذلك، وهو إما غنيمة للعبد إذا قطعه للعبادة؛ لربحه فيه بما تكون عاقبته له محمودة، وإما أن يكون عليه بضد ذلك إذا قطعه بالبطالة؛ لخسارته فيه بما تكون عاقبته عليه مذمومة، وهو أبدًا حادث متحقق الوقوع لحوادث متوهمة الوقوع، كأن تقول: آتيتك رأس الشهر، فالإتيان حادث متوهم وقوعه، ورأس الشهر حادث متحقق وقوعه، ويُقال: الوقت ما أنت فيه، إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى، فإن كنت بالسرور فوقتك السرور، أو بالحزن فوقتك الحزن.

---

(1) انظر: الرسالة القشيرية (ص37).

ومن كلامهم: الوقت سيفٌ فمن لاينه نال خيره، ومن خاشنه نال ضيره، كـذلك: الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه انتكس وتردَّى[1].

ومنها: المفاتحة:

وهي أنوارٌ معناها مبادأة العبد بما هو فيه على بساط الضـراعة، وبـث الشـكوى والمناجاة، فيباديه مولاه بمعان أسمائه وصفاته؛ ليرتاح بذلك وينسى كل شيءٍ.

ومنها: المواجهة:

وهي أنوارٌ معناها مقابلة القلب بملاحظة الرب دون التفات إلى غيره، فيواجهه مولاه بأنواره، ويقابله بأسراره، حتى لا يمكن أن ينظر ما سواه.

ومنها: المجالسة:

وهي أنوارٌ معناها ملازمة الذكر بلا غفلةٍ، والخضوع بلا وصلةٍ، والأدب بلا مهلـةٍ، فيكرم إكرام الجليس، وإليه الإشارة بخبر: «**أنا جليس من ذكرني**[2]».

ومنها: المحادثة[3]**:**

---

(1) قال القاشاني: الوقت : عبارة عن حالك، وهو ما يقتضيه استعدادك لغير مجهولٍ في زمن الحال الذي لا تعلق له بالماضي والمستقبل فلا يظهر فيك من شؤون الحق الذي هو عليها الآن، إلا بما يطلبه استعدادًا، فالحكم للاستعداد وشأن الحق محكومٌ عليه. وهذا هو مذهب التحقيق، فظهور الحق في الأعيان بحسب ما يعطيه استعدادها، فلذلك ينبع فيها فيض وجود الحق، وهو في نفسه على وحدته الذاتية، وإطلاقه وتجرده وتقدسه غنيٌّ عن العالمين .

(2) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (108/1)، (73/7)، والبيهقي في الشعب (451/1)، وأبو نعيم في الحلية (42/6).

(3) قال الشيخ ابن عجيبة: وأما المحادثة: فهي المكالمة القلبية، وهي الفكرة والجولان في عظمة الجبروت، فأنت تحادثه في سرك بمناجاته وسؤاله، وهو يحادثه بمزيد إحسانه ونواله، أنت تحادثه بدوام حضوره في سرِّك ولبِّك، وهو يحادثك بإلقاء العلوم والأسرار والحكم في قلبك، أنت تحادثه في عالم الشهادة، وهو يحادثه في عالم الغيب، وفي التحقيق ما ثم إلا عالم الغيب ظهر في عالم الشهادة. وانظر: إيقاظ الهمم (ص56).

وهي أنوارٌ معناها منازلة الأسرار بذكر المولى، والإقبال عليه فيما يلقيه بيديـه مـن سرورٍ وغيره، وإليه الإشارة بحديث: «**كان في الأمم السابقة محدثون، فإن يك في أمتي فعمرٌ منهم**[1]».

ومنها: المشاهدة[2]:

وهي أنوارٌ معناها صيرورة الحقيقة لمعدن البيان، فلا تحتاج إلى دليلٍ ولا برهانٍ.

ومنها: المطالعة[3]:

وهي أنوارٌ معناها مراقبة التوحيد في كل ورود وصدور، والرجوع إلى الحقيقة المـرة بعد المرة بلا تأملٍ والنظر فلا يبدو شيء إلا طُولع به سره.

واعلم أن الدر من وراء الصدف، فليس التصوف بحديثٍ يُكتفى فيه بالأخبـار، ولا يغتني بالعلم والعمل عن حصول الأنوار، غير أنه لا بدَّ من مثل هذا للمنتسبين والمحـبين وأهل البدايات، والله ولي التوفيق والهدايات.

---

(1) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (138/3).

(2) **قال سيدي محمد وفا** ﷺ **وعنًّا به**: المشاهدة هي إزالة الموانع عن الحقيقة المستعدة لقبول الحق، وحقيقتها: استغناء النظر الصحيح بالبصيرة النافذة في تحصيل المطلوبات عن نصب الأدلة والبراهين، وغايتها: رؤية الصديق عين خبر الصادق في صورة كونه اهـ.

(3) قال الشيخ القاشاني: المطالعة: توقيعات الحق للعارفين القائمين بحمل أعباء الخلافة. ابتداءً، أي من غير طلب، ومسألة، وعن سؤال منهم أيضاً.

وصورتها: المخاطبة الإلهية بمراسم علته، فيما يرجع إليهم كما نص المحقق الشيخ الأكبر قدس سره في كتابه: «التدبيرات الإلهية»، من التوقيعات الربانية، فقال: إملاء نقد الأمر المطالع الإلهى للخلفية الإنساني المثبوت فيه السر الولهى بالتردد بين أنيتي، وهويتي، وقد أنحلت وجهي لمن أراده بلا إرادة ، ومزقت الحجب تمزيقاً قرقيعاً لا تلفيقاً، وفزعت عن القلوب وترتيب معالم الغيوب، فاعكف في حضرتي ساجداً، فإنك لا تزال مشاهداً، فإن الرؤية في السجود، والحجاب وانظر فيما رسمته، فإنه لا خطاب في الرؤية ولا رؤية في الخطاب، والسلام عليك سلام من لم ينفصل عنك، لولا اتصل لبك، ورحمة الشهود وبركات الوجود، وفيما يرجع لحوادث الكون، والتصرف فيها على وجه يقتضي كماله.

والحق أن الإعراب عن هذه الألفاظ لغير ذائقها ستر، والإظهار لغير واجدها اختفاء، والعلم بكيفيتها مختصٌّ بالله تعالى، لا يمكن أن يطلع عليها إلا من يشاء من عباده، كما قيل:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيها

ولكنا لسنا إلا على آثارهم، وراجين أن نكون مقتبسين من أنوارهم، وكما قيل:

وما أنا إلا من غزيةٍ إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

فإذا تمهَّد لديك هذا فاعلم أيضًا أن المراد من هذا كله والمدار منه أن تعلم أن الحق تعالى باعتبار أنه مصدر الكائنات جميعها علويها وسفليها، وأنها أنوار دالات عليه سواء كانت مركبات أو بسائط، أو مجردات جواهر، أو أعراضًا كليات أو جزئيات، واعتبار انفراده بالوجود الذاتي، وأن جميع الموجودات مستمدة من وجوده، فهو هي وهي هو على معنى: لا هو إلا هو، كان الله ولا شيء معه، ويبقى الله ولا شيء معه، وإنما الكائنات تعينات له مخصوصة في أزمنةٍ مخصوصةٍ، محكوم عليها بأحكامٍ مخصوصةٍ، ثم إليه يرجع الأمر كما بدء؛ لحكمٍ عليةٍ وأسرار إلهيةٍ، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، بتدبيره تعالى وتقديره، قال تعالى: ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾ [الأنبياء:23].

فافهم ولا تكُ أسير النقل والتقليد، فتبقى لا تفيد ولا تستفيد، ولنرجع لزيادة بعض ما مضى لعل الله يجعلنا ممن رضي عنه فيما قضى.

ومنها: المقام: وهو بفتح الميم موضع القيام، وبضمها موضع الإقامة، وقد قرأ بهما: ﴿**لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا**﴾ [الأحزاب:13].

قال الجوهري: وقد يكون كل منهما بمعنى الإقامة وبمعنى موضع القيام، والمقام بلغتيه عند القوم: ما يتحقق: أي يتَّصف به العبد بمنازلته: أي بنزوله فيه، وانتقاله إليه باكتسابه له من الآداب، مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب، ومقاساة تكلف، فالمقام لا يُنال بتكسب وتطلب: أي مع الموهبة إلى أن يكمل العبد فيه، بخلاف الحال كما سيأتي.

ولذلك يُقال: أول المقام تطبع وآخره طبع، فمقام كل أحدٍ موضع إقامته وقيامه عند ذلك: أي عند اكتسابه ما يوصله إليه، يعني ما هو مشتغلٌ بالرياضة له، ومحصله أن مقام العبد ما وفَّقه الله له من أنواع الطاعة، وشغل قلبه به في الوقت والساعة.

وأول المقامات الكاملة الانخلاع عن العادات والمألوفات، وذلك هو التحقق بالعبودية موافقة لأمر الحق، بحيث لا تدعوه داعية إلى مقتضى طبعه وعادته، ولا ينبغي لذي المقام أن يفتر عن عروض الغفلة في حالة ذكره مثلاً؛ لأن الذكر لا يتقيَّد بحالة حضور ولا غفلة، على أن في وجود الذكر مع الغفلة إقبالاً بوجهٍ ما، والغفلة عنه إعراض بالكلية، وفيه تزيين جارحة اللسان بالعبادة، وفيه تعرض لنفحات رحمة الله، فعسى أن يرفعه إلى ما هو أعلى من ذكره، وشرطه: أي المشتغل بمقامه ألا يتشوف: أي لا يتطلَّع إلى غير ما هو فيه، إلى أن يرتقي من مقامٍ إلى مقامٍ آخرٍ ما لم يستوفَ أحكام ذلك المقام، بل يثبت فيما أقامه الله فيه، حتى يتم له التحقق بكاملٍ ما فيه من الأحكام؛ لأن اشتغاله بالأرفع يشغله عما هو فيه، وذلك يؤدي إلى فوات المقامين الرفيع والأرفع، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل، وهذا يرجح ذلك بمعنى أن من اشتغل بمقام القناعة و لم يحكمه لا يصح منه أن يرتقي إلى مقام التوكل، ولكل مقامٍ بدء ونهاية، وبينهما أحوال متفاوتة، مثاله في مقام الخوف من الله مثلاً أن يترك العبد الكبائر خوفًا من الله، فإذا ارتقى عن ذلك ترك الصغائر أيضًا، ثم المكروهات، ثم الشبه: أي ما فيه شبهة، وذلك أول مقام في الورع، ثم ترك التوسع في الحلال، وهو أول مقام الزهد إلى أن ينتهي إلى ترك كل ما يشغل عن الحق تعالى.

ثم بعد ذلك مقام التوكل، ثم الرِّضا بما يجريه القضاء لائم النفس أم لم يلائمها، وهكذا إلى ما لا نهاية له، والله تعالى أعلم.

ولذلك لا يفهم من المقام السكون إلى ما نازلته منه، بل علق همتك بالرحلة عنه إلى موليه، وتدبَّر قول بعضهم:

فلا تلتفت في السير غيرًا فكل ما ... سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا

وكل مقامٍ لا تقم فيه إنه ... حجابٌ فجد السير واستنجد العونا

ومهما ترى كل المقامات تجتلي ... عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا

وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب ... فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنا

وسر نحو أعلام اليمين فإنها سبيل بها يمن فلا تترك اليمنا

وتعريف المقام حقًّا هو أنه المنزلة التي يترقّى لها العبد، ثم ينتقل إلى أعلى من ذلك بإشاراتٍ إلهيةٍ، وذلك بعد ثبوت القدم فيما منح أولاً، هذا وقال بعضهم: المقام هو استيفاء حقوق المراسم، فمن لم يستوفَ حقوق ما فيه من المنازل لم يصح له الترقّي إلى ما فوقه، كما أن من لم يتحقق بالقناعة لم يصح له التوكل، ومن لم يتحقق بحقوق التوكل لم يصح له التسليم، وهلم جرا في جميعها؛ لأنه إنما سُمِّي مقامًا لإقامة السالك فيه.

واعلم أن من جملة المقامات مقام التنزل الربَّاني، وهو للنفس الرحماني، أعني ظهور الوجود الحقاني في مراتب التعينات.

ومن المقام المكانة، وهى المنزلة التي هي أرفع المنازل عند الله تعالى، وقد يُطلق عليها المكان، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ [القمر:55]، ولا يصل أحدٌ إلى هذه المنزلة إلا بواسطة ممد الهمم، وهو النبي ﷺ لأنه الواسطة في إفاضة الحق على من يشاء من عباده، وامتدادهم بالنور والتأييد، ونهاية هذا المدد إلى نهاية المعرفة، وهى الحضرة الوحدانية، وتُسمَّى منشأ السوي باعتبار النفس الرحماني الذي منه تظهر صور المعاني، فإنها تظهر بالوجود.

ومن المنازل منزل التدلي سُمِّي به لتنزل الحق فيه إلى صور الخلق، ومنزل التداني لدنو الخلق فيه من الحق، وفوق هذا المشهد المنقطع الوحداني، وهو حضرة الجمع التي ليس للغير فيها عين ولا أثر، فهي محل انقطاع الأغيار، وعين الجمع الأحدية، ويُسمَّى منقطع الإشارة.

هذا ولا يتم ذوق هذه المشاهدة إلا بعد موت النفس عن هواها، حتى يحيا القلب وينصرف بالطبع، والمحبة الأصلية إلى عالم القدس والنور، والحياة الأصلية الذاتية التي لا تقبل الموت أصلاً.

قال تعالى: ﴿**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ**﴾ [البقرة:54].

فقد أشار إلى أن من تاب فقد أمات نفسه، وللإشارة بخبر: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**[1]».

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (511/1)، والمناوي في فيض القدير (109/3).

وخبر: ((**المجاهد من جاهد نفسه**[1])).

واعلم أن المضاهاة بين الحضرات والأكوان تتحقق بوجه انتساب الأكوان إلى الحضرات الثلاثة، أعني حضرة الوجوب، وحضرة الإمكان، وحضرة الجمع بينهما، فكل ما كان من الأكوان نسبته إلى الوجوب أقوى، كان أشرف وأعلى، فيكون حقيقة علوية روحية أو ملكية أو بسيطة فلكية، وكل ما كان نسبته إلى الإمكان أقوى كان أخس وأدنى، فكان حقيقة إنسانية، وكل إنسانٍ كان إلى الإمكان أميل وكانت أحكام الكثرة الإمكانية فيه أغلب كان من الكُفَّار، وكل ما كان إلى الوجوب أميل وأحكام الوجوب فيه أغلب كان من السابقين الأنبياء والأولياء، وكل من تساوى فيه الجهتان كان مقتصدًا من المؤمنين، فبحسب اختلاف الميل إلى إحدى الجهتين اختلف المؤمنون في قوة الإيمان وضعفه، فتدبره وعض عليه بالنواجذ، فإنه من الأسرار التي لا يعلمها خلاف الأبرار.

ومنها: الحال[2]:

وهو عند القوم معنى يرد على القلب من غير تعمل منهم ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم من طربٍ، أو حزنٍ، أو بسطٍ، أو قبضٍ، أو انزعاجٍ، أو هيبةٍ، أو اهتياجٍ: أي ثوران،

(1) رواه الترمذي (165/4)، وأحمد (20/6)، وابن حبان في الصحيح (5/11)، (484/10).

(2) قال شيخ الإسلام الشرقاوي: واعلم: أن للطائفة اختلافًا كثيرًا في تعريف الحال والمقام، كما قاله الشيخ عبد الكريم الجيلي في بعض كتبه.

فمنهم من ذهب إلى أن الحال متى دام لشخص صار مقامًا، ومنهم من ينفي دوام الحال ويقول: إنه لا دوام له، والمقام عنده بعكسه، وهو ما لا يفارق الشخص كالتوبة والتوكل والزهد، وأمثال ذلك، وهذا هو المختار عندنا، فإن الشخص إذا ارتقى من موطن لابسه فيه حال، فارق ذلك الحال وفارقه الحال عند ترقيه من الموطن، فلا يرد عليه ذلك الحال بعد الترقي؛ لأنه ترقَّى من الموطن، فلو كان فيه لورد عليه مثل ذلك الحال الأول لا عينه، ولا تزال الأحوال واردة صادرة غير مستقرةٍ، فعلى هذا التقرير يكون المقام: ما يلزم ثبوته العبد، والحال: ما لا يدوم زمانين، فإن تصور عندك حال له دوام، فإنما ذلك مثل أعقب المثل، وفاتك التمييز لرقة الحجاب.

وفيما ذكرناه للقوم فيه اختلافات كثيرة، اقتصرنا منها على ما وقع الاختيار فيه بحسب علمنا واجتهادنا، والله الموفَّق لا رب غيره انتهى. وانظر: شرح الحكم الكردية (ص113).

ولو بلا طرب، فالأحوال مواهب ترقى إلى المقامات، والمقامات مكاسب بمواهب؛ لأنها إنما تُنال بالكسب مع الموهبة.

قولهم: معنى يرد علي القلب محصله أنها واردات إلهية، ترد على قلوب العارفين بواسطة تنوير قلوبهم الناشئ عن دوام الجد والاجتهاد في العبادة، مع الإخلاص والمراقبة، ولكن لا كسب للعبد فيها، وإنما هي مدارج للمطالب من رفيع المقامات، مع أن مبنى الأمر على الحال لا القال، فارحل إلى أوطان الحال، وقدم بين يدي نجواك صدقة صدق وعزم وتقوى، لا زخرف قول ودعوى.

قولهم: من غير تعمل منهم: أي ولذا قال أبو محمد عبد القادر الجيلاني رحمه الله: الوارد الإلهي لا يرد باستدعاء، ولا يذهب بسببٍ، ولا يأتي على نمطٍ واحدٍ، ولا في وقتٍ واحدٍ، والطارق الشيطاني بخلاف ذلك فتدبَّر.

قولهم: (ولا اجتلاب): أي وإنما هي المواهب الفائضة على العبد من ربه إما ميراثًا للعمل الصالح أو امتنانًا محضًا.

قولهم: (ولا اكتساب لهم): أي لأن التنزلات العرفانية على القلوب القدسية لا ترد إلا فجأة دون رؤية واستعداد وتوقيت، وقد ترد عن استعدادٍ وذلك أقل قليل، بل يكاد أن يكون معدومًا.

قولهم: فالأحوال مواهب: أي تنشأ عن الهبات الإلهية لا مدخل للكسب فيها.

وقولهم: والمقامات مكاسب: أي تنال بكسب العبد وطلبه بمساعدة الهبات.

واعلم أن المقامات قد تكون ذميمة، فانظر إلى ما نُسب إليه الإنسان الحامل للأمانة من الظلم والجهل، وذلك لأن الحمل يستدعي قوة وقدرة وليس للعبد ذلك، وعوفيت السموات والأرض والجبال من ذلك؛ لوقوفها على حد العجز، وفي ذلك معرفة بالنفس اللازم منه معرفة الرب، والعارف لا يُلام، وإنما يُلام الجاهل، فتأمَّل ما وُفقت له الجمادات، وحُجبت عنه أصحاب الإدراكات، حيث كان عين علمه عين جهله، وعين عدله عين ظلمه، فظهر الجهل الباطن وبطن العلم الظاهر، وكذلك العدل والظلم، فإن الإنسان إنما حمل الأمانة تعظيمًا لمقام الربوبية، وخوفًا من السقوط عن وظائف العبودية، فخاف من شيءٍ فوقع فيه، وهذا سر الله في خليقته.

خاف يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام فوقع فيما منه خاف، وكذا آدم عليه السلام خاف من مفارقة الجنة فوقع فيها، ولذا قيل: إنما حرموا الوصول من تضييع الأصول فافهم.

ويُقال أيضا: الأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصيل ببذل المجهود، وصاحب المقام متمكنٌ في مقامه، وصاحب الحال مترق عن حاله، فالمقامات مستقرة والأحوال متغيرة.

قال العلاّمة القونوي: والتحقيق أن الجميع مواهب، إلا أن المقامات يظهر فيها الكسب وتبطن فيها الموهبة والأحوال بالعكس، وقد تصير الأحوال مقامات وذلك عند استقرارها، وأسبابها وهي الطاعة قد يعرفها العبد وقد لا يعرفها أصلاً.

وقوله: يعرفها في الحال كأن يجد من نفسه القبض والبسط، ولا يعرف سببه؛ لغفلةٍ أو نسيانٍ.

قال جامعه عفا الله عنه: وقد سنح لي أن هذين اللفظين من ألفاظهم فروع عن هذين اللفظين، و لم تكن التفرقة إلا بمجرد الاصطلاح، ولا مشاحة فيه، ومن تأمَّل في ألفاظهم كلها وجدها بحول الله راجعة لهما، وكل واحدٍ منهما راجع للآخر في الحقيقة.

ومنها: القبض والبسط[1]:

وهما حالتان تحصلان للعبد بعد ترقِّي العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف المستأنف: أي المبتدأ، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف، ومن الفرق بين القبض والخوف الذي هو بمنزلته، وبين البسط والرجاء الذي هو بمنزلته، أن الخوف إنما يكون من شيءٍ يحصل في المستقبل، إما لكونه أن يخاف من فوت أمر محبوب أو هجوم أمر محذور، وكذا الرجاء إنما يكون بتأميل: أي رجاء حصول أمر محبوب في المستقبل، أو يتطلّع زوال محذور، وكفاية مكروه في المستأنف أو المستقبل، وأما القبض فلمعنى حاصل في الوقت، وكذلك البسط، وهما مظهران من مظاهر

(1) قال الإمام الجنيد قدَّس الله سرَّه في معنى القبض والبسط: يعني الخوف والرجاء، فالرجاء يبسط إلى الطاعة، والخوف يقبض عن المعصية. وانظر: كتابنا الإمام الجنيد (ص128). والرسالة القشيرية (ص40)، ولطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام للقاشاني (ص360، 110).

اسمه تعالى القابض الباسط، فهو تعالى يقبض ويبسط في الأقوال والأرواح والأشباح والأسرار والأخلاق والأرزاق.

واعلم أن القبض كثيرًا ما تلزمه خشية، ولهذا قال بعضهم: إن هذه الحالة تلتزم الفناء فكانت موتًا، ومع ذلك يصح فيها للعبد المقرب أن يتقاضى مقامًا أو حالاً على جهة قول الشاعر:

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا   فنحن سكوتٌ والهوى يتكلمُ

وقول الآخر:

فلم أرَ بدرًا ضاحكًا قبل وجهها   ولم ترى قبلي ميتًا يتكلم

وأما البسط فكثيرًا ما يكون في صاحبه بسط يسع الخلق، فلا يستوحش من أكثر الأشياء، أو يكون مبسوطًا منشرح الصدر، كما قيل:

سكن الفؤاد فعش هنيئًا يا جسد   هذا النعيمُ هو المقيمُ إلى الأبد

عش في أمانِ اللهِ تحتَ ظلاله   لا خوف في هذا الجناب ولا نكد

والعارف إذا بسط أخوف منه إذا قبض؛ لأن النفس جموح لها بطر إذا نشقت روائح الراحة، بدليل قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [العلق:6، 7]، ويخافون أيضًا من قوله تعالى: ﴿**لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً**﴾ [الأعراف:187].

ومنها: الهيبة والأنس(1):

وهما فوق القبض والبسط رتبة: أي منزلة، فكما أن القبض فوق رتبة الخوف والبسط فوق منزلة الرجاء فالهيبة أعلى من القبض: أي فوقه، والأنس أتم من البسط: أي فوقه، فالهيبة ناشئة من القبض الناشئ من الخوف، والأنس ناشئ من البسط الناشئ من الرجاء؛ لأن من خاف من الله وعرف تقصيره في حقه تعالى انقبض قلبه وبقى مشغولاً

---

(1) سئل الجنيد قدَّس الله سرَّه عن الأُنس بالله؟ فقال: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.

وقال أيضًا: أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياءً هي كفرٌ عند العامة.

وقال مرة: لو سمعها العموم لكفَّروهم، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك وذلك يُحْتَمَل منهم ويليق بهم. وانظر: كتابنا في الجنيد (ص129) والرسالة القشيرية (ص41).

بالله، فيحصل له الهيبة منه، ومن أمل وصوله إلى خيره انبسط قلبه وبقي مشغولاً بالله، فيحصل له الأنس به.

واعلم أن الهيبة هي الخشية والإجلال للحق تعالى، ومنشأها كمال العلم والمعرفة بالله، والأنس لغةً: مصدر أنس يأنس أنسًا من الاستئناس بالغير، وهو ثلاثي بخلاف آنس فإنه رباعي.

ومنه قوله تعالى: ﴿**آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا**﴾ [القصص:29]: أي أبصرها وأدركها، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد:28].

قال قتادة: هشت قلوبهم إلى ذكر الله: أي ارتاحت وخفَّت ونشطت وفرحت واستأنست به، وقوله: ﴿**حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**﴾ [النور:27]، وقوله: ﴿**وَلاَ مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ**﴾ [الأحزاب:53]: أي متحدثين بعد فراغ الطعام إيناسًا من بعضكم لبعضٍ، والأنس له أقسام: فأنس بالخلوة، وأنس بالعبادة، وأنس به تعالى وهو المراد هنا.

أما الأنس بالخلوة فصاحبه ينقص بالانفصال عنها، والأنس بالعبادة يتم بحسب اعتمادها مع النظر إلى وعد جزائها، والأنس به تعالى ينشأ عن كمال المعرفة بعظمته تعالى وجلاله وجماله، وباقي كمالاته من الإنعام، وانفراده بالأحكام، وصاحبه يستوي عنده الاجتماع بالخلق والانفراد عنهم، وهو خلق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فسبب الأنس معرفة العبد كمالات الرب، ورغبته ورهبته بتجليات الوعد والوعيد، وثمرته بحر لا يمكن حصره، وفضل لا يمكن عده.

قال صاحب نتائج الأفكار: فإن قلت: قد نهى النبي ﷺ عن التبتل للعبادة قلت: ذلك من باب النهي عن التكلف لما يشق من الأعمال خوف الانقطاع قبل بلوغ الآمال، فيكون كالمنبت لا أرض انقطع ولا زهرًا أبقى، وما نحن فيه من الرفق بالنفس والتدريج في المقامات حتى تصير قرة عينه العبادة، وحق الهيبة الغيبة للهائب، فكل هائبٍ من شيءٍ غائب عن غيره.

ثم الهائبون يتفاوتون في الهيبة على حسب تباينهم في الغيبة، فمنهم من تطول غيبته، ومنهم من تكثر غيبته على حسب هيبته ممن اشتغل به، وإجلاله وحق الأنس صحو بحق:

أي يقظة وإفاقة بمقامٍ شريفٍ يشرف عليه صاحب هذا المقام، وعلى ذلك فكل مستأنسٍ صاح لإدراكه لذة مناجاته وطاعته، ولذاذة المصافاة وصفي الخلات.

قال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ولا إلى شيءٍ سواها، وهي طاعة الله سبحانه وتعالى، ثم المستأنسون يتباينون: أي يتفاوتون على حسب تباينهم في الشِّرب بكسر الشين: أي الحظ.

واعلم أن القبض والبسط حالان لأهل النفس الملهمة، كما أن الهيبة والأنس لأهل المطمئنة والراضية والمرضية، ويتحولان لصاحب الكاملة بالجلال والجمال، فيكون في موضع الهيبة الجلال، ويكون في موضع الأنس الجمال، ولو تتبعت هذا لما أتممته بالمقال.

قال الجنيد رحمه الله: كنت أسمع السري السقطي يقول: يبلغ العبد في الأنس بالله إلى حدٍّ لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر به، وكان في قلبي شيءٌ منه حتى بان لي الأمر، كذلك حيث ذاق ذلك، وعلم أن كمال الاستغراق يزيل الإحساس بالنفس الكلية[1].

قال جامعه عفا الله عنه: ولقد شاهدنا من ذلك ولله الحمد في مواريد شيخنا ما يحير العقل، ولو تتبعته لأكثرت النقل، لكن ليس إلا كما جاء في الخبر: «**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا ذكروه أنكره أهل الغرة بالله**[2]».

وأنشدوا في ذلك شعرًا:

يا رب جوهر علم لو أبوح به   لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي   يرون أقبح ما يأتونه حسنا

إذا علمت ذلك فالذي ينبغي للكامل أن يذكر الوعظ والتذكير لعموم المسلمين، كما هو شأن أفضل العالمين، وما كان من البيان والتقرير فللخاصة من المحبِّين، وما كان من الأحوال والمقامات فللمريدين والسالكين، وما كان من الحقائق والمعارف فلأهل المعرفة والواصلين، فلكل مقامٍ مقال، ولكل علمٍ رجال، ولا لوم على من أسكره الحب، وأدهشه

(1) انظر: اللمع (ص381)، والرسالة (199/1)، والعهود المحمدية (ص263)، والإمام الجنيد سيد الطائفتين لنا أحمد المزيدي (ص131).
(2) تقدم تخريجه.

جمال محيا القرب إلا أنه كما لا يخفى صعب المذاق، ولا سيما لمن ذاق من شراب التلاق، كما قيل:

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل   فما اختاره مضني به وله عقل

وعش خاليًا فالحب راحته عنا   فأوله سقم وآخره قتل

ومنها التواجد والوجد والوجود:

فالتواجد(1): استدعاء الوجد: أي طلبه واكتسابه، فهو تكلف الوجد بتكرار استدعائه، **والوجد**(2): غلبة الباعث على القلب.

والوجود(3): حصول الوجد بالفعل في القلب، فالتواجد للمبتدئين، والوجد للمتوسطين، والوجود للمنتهين.

---

(1) التواجد: استعمال الوجد، بتعمدٍ في تحصيله، ففي الحقيقة لا يصادف الوجد الأعلى القلب الفارغ فجأة، فما يحصل بالاستدعاء لا يكون وجدًا.

وقيل: إظهار حالة الوجد من غير وجدٍ؛ موافقةً لمن به الوجد، وإن كان من إثارة الطبع فليس ذلك من شيم أهل الطريقة.

(2) قال القاشان في الوجد: هو ما يصادف القلب من الأحوال المعينة. أي: الأحوال التي تأخذه عن شهوده نفسه، ومن شهو الحاضرين، وما يلاقيه من الكون، ويفجأ القلب بالوصف المذكور، وهو وجد صحيح، وعلامة صحته أنه فائدة ومزيد علم ذوقي، وإلا فالغيبة فيه توأم القلب باستيلاء أبخرة طبيعية.

(3) الوجود: وجدان الحق في الوجد، فإن المشهود في الوجد هو ما صادف بغتةً، وما صادف بغتةً إن لم يكن وجود الحق لا يفنيك عن شهودك نفسك وشهود الكون، إذ من شأن القديم أن يمحو الحادث عند اقترانه به، لا شأن غيره، ولكن وجود الحق في الوجد غير معلومٍ؛ إذ ما يقع به المصادفة قد يكون على حكم ما عينه السماع المطلق أو المقيد فلا ينضبط؛ فإنه: ﴿ **كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ** ﴾ [الرحمن:29]، ولذلك قال قدَّس سرَّه: إذا رأيتم من يقدر الوجد على حكم ما عينه السماع المطلق أو المقيد فما عنده خبرٌ بصورة الوجد، فإنما هو صاحب قياسٍ في الطريق، وطريق الله تعالى لا يُدرك بالقياس؛ فإنه قال جل جلاله: ﴿ **كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ** ﴾ [الرحمن:29]، وإن كل نفسٍ في استعدادٍ.

فوجود الحق في الوجود إنما يختلف عند الواجد بحكم الأسماء الإلهية، وبحكم الاستعدادت الكونية في كل نفسٍ إلى لا غاية.

وليكن هذا آخر الكلام على هذه الأحوال والمقامات؛ لأني لو تتبعته جميعًا لاحتجت إلى كثير مجلدات، ومن أراد الكلام عليها فعليه بالرسالة القشيرية وشرحها وحاشيته، ورسالة السير والسلوك إلى ملك الملوك[1]، والفتوحات المكيَّة، ونظم شيخنا المُسمَّى بمنظومة الأحوال، وتأليفنا المُسمَّى بالإيضاح على ما للقوم من اصطلاحٍ، وغير وغير[2]، وإنما أعرضت عن الكلام عن جميعها؛ لأن أغلبها ليس إلا كما يقولون فيه أنه بغير ذوقٍ لا يُعرف، ولذلك قلت:

وبعدَ ذا لاَ يَنبغِي التعبير عن الشهود فَادرِ يا خَبير
لأنه بغير ذَوقٍ ما دري والذوقُ يُغني فيه عن مُعَبِر

أعني أن بعد الذي ذكرت من الشهود فلا **(ينبغي التعبير)** عن الشهود لأجل أنه بغير ذوق له ما دري: أي ما عُرف، **(والذوق)** فيه يغني عن معبرٍ؛ لإغنائه لصاحبه عن التعبير، والذوق هو أول مبادئ التجلِّي إلى الشرب، والشرب هو الوسط من التجلِّي من مقامٍ يستدعى الري، وقد يكون من مقامٍ لا يستدعي الري، قد يكون مزاج الشارب لا يقبل الري، والري هو غاية التجلِّي في كل مقامٍ، فإن كان المشروب خمرًا أدَّى لسكر، وإن كان عسلاً أدَّى لما يناسب العسل من لذةٍ، وما ينتج عنه من صفرةٍ، وإن كان لبنًا أدَّى لما يناسب اللبن، وهو أفضل ما ينال وأسلمه عاقبة، وإن كان ماءً أدَّى لما يناسب الماء من طهارة وبرودة، وكل أنواع الشراب أهله طوائف كثيرة لا يمكن حصرها، وليس منهم من يخرج عن الشرع كأهل السُّكْر؛ لأن السكر لا تكليف عليه، وليس من يوافقه كأهل اللبن، ولذلك شربه النبي ﷺ حين آتاه جبريل بالأشربة فقال له: «**أصبت**[3]».

ولنشر إلى طرفٍ قليلٍ من أصحاب السُّكْر[4] بعد الذكر لبعض منازل الأولياء، وإنما ذكرت البعض من أهل السُّكْر ليستدل به على غيره منهم؛ لأنهم هم الذين يخرجون غالبًا

---

(1) لصلاح الدين الخاني، وهو مطبوع ثلاث طبعات.

(2) مثل: لطائف الإعلام، ورشح الزلال، ومصطلاحات الصوفية ثلاثتهم للقاشاني، واصطلاحات الصوفية للشيخ الأكبر، وكلها مطبوعة والحمد لله.

(3) رواه البخاري (1269/3)، ومسلم (154/1).

(4) يقول الهجويري: ثم أن الجنيد وأبا العباس السياري وأبا بكر الواسطي ومحمد بن عليٍّ الترمذي اتفقوا على أن الكرامة تظهر في حال الصحو والتمكين دون السكر؛ لأن الله تعالى جعل أولياءه للعالم، =

عن الشرع، بل لا يدخلونه إلا نادرًا، وأما غيرهم من أهل الطوائف وهم الكثيرون فليس لهم خروج عنهم إلا نادرًا ولله الحمد، وذلك أن هذه الأمة المباركة المحمدية لما جمع الله في نبيها ما تفرَّق في غيره من الأنبياء، وجمع في كتابها ما تفرَّق في الكتب كذلك جمع فيها هي ما تفرق في غيرها، فمما جمعته هذه الأمة أن جعل الله لأوليائها حظًّا في نعوت أهل البعد عن الله تعالى بطريق القرينة، فيقع الاشتراك في اللفظ والمعنى، ويتغير المصرف كما يُقال في الحرص أنه مذمومٌ، فإذا حرصنا في طلب العلم والتقرب إلى الله تعالى كان محمودًا، وهو بإطلاق اللفظ مذموم، فإنه ما يستعمل مطلقًا إلا في مذموم، فإذا أُريد به الحمد قُيِّد فقيل حريص على العلم، وهكذا الحسد يتعوذ منه مطلقًا من غير تقييدٍ، فإنه بالإطلاق والذم يستعمل في المحمود بالتقييد، فلهذا جمع الله لأولياء هذه الأمة النظر في مثل هذا، فحصلوا حظوظهم من أسماء الذم في الإطلاق حتى لا يفوتهم شيء؛ إذ كانوا جامعين للمقامات كلها، فلهم في كل أمرٍ شرب وحظ، وليتأمل الناظر منصفًا هذه الأبيات؛ ليعلم منها صدق ذلك، وهي قولهم:

إذا جاء نعت أي نعت فرضته ... لنا فيه حظٌّ وافرٌ ثم مشرب

سواء يكون النعت في ذم حالة ... وفي حمده فالكل للقوم مطلب

ألست ترى أوصافه في نعوتنا ... وأوصاف نعت له لا يكذب

له فرح في حمالة وتبشش ... إلى ملك قد جاءنا وتعجب

وهرولة نسيانه وتردد ... ومكر وكيد كل ذلك مرتب

كما كان للعبد الجلال ومجده ... وعز وتعظيم لديه مرغب

وهذا من أوصاف الإله تدبروا ... كلامي الذي قد قلت فيه وأطنبوا

كذلك نعتي الأولياء مدحتهم ... بما ذم عرفًا في الأنام فنقبوا

=

وناط بهم الحِلَّ والعَقد، وصيَّر أحكام العالم موصولةً بهمَّتهم، فوجب أن تكون آراؤهم أصحَّ كل الآراء، وقلوبهم أشفق كل القلوب، وبخاصة على خلق الله؛ لأنهم واصلون، والتلوين والسكر يكونان في حال الابتداء، فإذا حصل البلوغ تبدَّل التلوين بالتمكين، ومن ثم يكون الولي وليًّا حقًّا، وتكون كراماته صحيحة. قال الجنيد: الشبلي سكران، ولو أفاق لجاء إمامًا ينتفع به. وانظر: كتابنا الجنيد (ص139).

فمن أنكر العلم الذي قد شرحته فليس هو الشخص العليم المقرب

واعلم أن منازل الأولياء على نوعين: حسيَّة ومعنويَّة:

فمنازلهم الحسيَّة: في الجنان وإن كانت الجنة مائة درجة، ومنازلهم الحسيَّة في الدنيا أحوالهم التي تنتج لهم خرق العوائد.

فمنهم من يبرز فيها كالأبدال وأشباههم.

ومنهم من تحصل له ولا يظهر عليه شيء منها كأكابر العارفين، وهي تزيد على مائة منزل وبضعة عشر منزلة، وكل منزلٍ يتضمَّن منازل كثيرة، فهذه منازلهم الحسيَّة في الدارين تقريبًا.

وأما منازلهم المعنوية: في المعارف فهي مائة ألف منزل وثمانية وأربعون ألف منزل محققة، لم ينلها أحدٌ من الأمم قبل هذه الأمة، وهي من خصائص هذه الأمة، ولها أذواق مختلفة، لكل ذوقٍ وصف خاص يعرفه من ذاقه، وهذا العدد منحصرٌ في أربعة مقامات:

- **مقام العلم اللدني.**
- **وعلم النور.**
- **وعلم الجمع والتفرقة.**
- **وعلم الكتابة الإلهية.**

ثم بين هذه المقامات مقامات من جنسها تنتهي إلى بضع ومائة مقام، كلها منازل للأولياء، ويتفرَّع من كل مقامٍ منازل كثيرة معلومة العدد، يطول الكتاب بإيرادها، وإذا ذكرت الأمهات عرف ذوق صاحبها.

فأما العلم اللدني: فمتعلقه الإلهيات، وما يؤدي إلى تحصيلها من الرحمة الخاصة.

وأما علم النور: فيظهر سلطانه في الملإ الأعلى من قبل وجود آدم بآلاف من السنين من أيام الرب.

وأما علم الجمع والتفرقة: فهو البحر المحيط الذي اللوح المحفوظ جزء منه، ومنه يستفيد العقل الأول وجميع الملأ الأعلى منه يستمدون.

[علم الكتابة الإلهية]: وما ناله أحدٌ من الأمم سوى أولياء هذه الأمة، وتتنوع تجلياته في صدورهم على ستة آلاف نوع ومائتي تقريبًا، فمن الأولياء من حصل جميع هذه المقامات، ومنهم من حصل بعضها.

ولهم منازل في كل نوعٍ من الأنواع، كل منزلٍ منها على منازل لا يسع الوقت لحصرها؛ لتداخل بعضها في بعضٍ، ولا ينفع فيها إلا الذوق خاصة.

وقد كان للأولياء في سائر الأمم من هذه العلوم نفثات روح في روعٍ: أي قلب، وما كمل إلا لهذه الأمة تشريفًا لهم وعنايةً بهم لما كانت لنبيهم محمد ﷺ، وفيه من خفايا العلوم التي بمنزلة الأصول ثلاثة علوم:

- علم يتعلَّق منه بالإلهيات.
- وعلم يتعلَّق بالأرواح العلويَّة.
- وعلم يتعلَّق بالمولدات الطبيعية.

فما يتعلق بالإلهيات على قدمٍ واحدٍ لا يتغير وإن تغيرت تعلقاته، والذي يتعلق منه بالأرواح العلوية يتنوع من غير استحالة، والذي يتعلق بالمولدات الطبيعية يتنوع ويستحيل باستحالتها، فإن المواد التي حصل له منها هذا العلم استحالت، فالتحق العلم بها بحكم التبعية.

وقيل: التجلِّي العلمي لا يقع إلا في أربع صور:

الماء، واللبن، والخمر، والعسل.

فمن شرب الماء يُعطى العلم اللدني.

ومن شرب اللبن يُعطى العلم بأمور الشريعة.

ومن شرب الخمر يُعطى العلم بالكمال.

ومن شرب العسل يُعطى العلم بطريق الوحي، وأهل الخمر هم أهل السُّكْر، والأغلب فيهم التستر بالأوصاف المذمومة لا الأوصاف المحمودة، وربما تستر بها غيرهم.

فمنهم من تستر بالحسد وهم الحاسدون، قال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله علمًا فهو يبثه في الناس، ورجلٌ آتاه الله مالاً فهو ينفقه في سبيل البر**[1]».

فقام أهل النفوس الأبيَّة التي تأبَّى الرزائل وتحب الفضائل وجماع الخير فقالوا: لا ينبغي الحسد إلا في معالي الأمور، وأعلى الأمور لا تُعرف إلا بأربابها، ورب الأرباب وذو الصفات العلى والأسماء الحسنى هو الله تعالى، فتشبَّهوا به في التخلق، ففعلوا وبالغوا واجتهدوا إلى أن صاروا يقولون للشيء: كن فيكون، وذلك أقصى المراتب التي يُمدح بها، فلولا الحسد ما تعمل القوم في تحصيل هذا المقام.

ومنهم من ظهر عليهم من خرق العادة ما قيل أنهم الساحرون بسببه، والسِّحر بالإطلاق صفة مذمومة، وحظ الأولياء منها ما أطلعهم الله عليه من علم الحروف والأسماء، وهو علم الأولياء، فيتعلمون ما أودع الله في الحروف والأسماء من الخواص العجيبة التي تنفعل عنها الأشياء لهم في عالم الحقيقة والخيال، فهو وإن كان مذمومًا بالإطلاق فهو محمودٌ بالتقييد، وهو من باب الكرامات وخرق العوائد، ولكن لا يُسمُّون سحرة مع أنه يشاهد منهم خرق العوائد، فسُمِّي ذلك في حقِّهم كرامة، وهو عين السحر عند العلماء.

فمنهم من يُعطى ذلك كله في بسم الله وحده، ومنهم من يُعطاه في غيرها.

ومنهم من يظهر عليه من الشطح وترك الصلاة وشبهه ما لا يُوصف حتى يصير منهم نوع يتستر بتستر يشتق لهم منه أنهم الكافرون، وهم الساترون مقامهم، كما يُقال للزارعين الكُفَّار؛ لأنهم يسترون البذور في الأرض، ولكل منظر عين تخصه، فالكافر الحقيقي من ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، والكافر من الأولياء من ختم الحق على قلبه؛ لأنه اتخذه بيته، فقال: «**ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**[2]».

والله غيورٌ، فلا يريد أن يزاحمه أحدٌ من خلقه فيه، كما ختم الحرم، فلم يحل لأحدٍ قتل ولا صيده، ولا قطع شجره فإن الله لا ينظر إلا إلى قلب العبد، فلما ختم الله على

(1) رواه البخاري (2737/6)، ومسلم (558/1)، والترمذي (330/4)، والنسائي (27/5)، وابن حبان في الصحيح (333/1)، بنحوه.
(2) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (365/1).

قلب هذا العبد لم يدخل في قلبه سوى ربه، وختم على سمعه فلا يصغي إلى كلام أحد إلا إلى كلام ربه، فهم عن اللغو معرضون، وعلى بصره غشاوة وهي غطاء العناية، فلا ينظرون إلى شيءٍ إلا ولهم فيه آية تدل على الله، فكان هذا الحفظ غشاوة تحول بين أعينهم وبين النظر من غير دلالةٍ ولا اعتبارٍ، وحالت بينهم وبين ما لا ينبغي أن ينظر إليه، فهي غشاوة، ولهم عذابٌ من العذوبة عظيم، يعني عظيم القدر، فإن العذاب إنما سمَّاه الله بهذا الاسم إيثارًا للمؤمن، فإنه يستعذب ما يقوم بأعداء الله من الآلام، فهو عذب بالنظر إلى هؤلاء.

ومنهم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بمنعها من حقوقها، وغير وغير مما يطول بنا جلبه، فعلى المرء أن يظن بهم خيرًا، حتى إن منهم من يُقال إنهم مشركون، وهم المشاركون لمعاني الأسماء بعضها ببعضٍ، فالمشركون هم الذين وقفوا على الشركة في الأسماء الإلهية؛ لأنها اشتركت في الدلالة على الذات، وتميَّزت بأعيانها بما تدل عليه من رحمةٍ وغفرانٍ وانتقامٍ وحياةٍ وعلمٍ وغير ذلك.

وبالجملة:

فأنواع الأولياء كثيرون، وأصنافهم ومنهم الخاملون وهم المشتهرون، وإيَّاك ثم إيَّاك يا أخي أن تظن أنهم محصورون، أو أنهم في بلدٍ متميزون، بل كل ما سمعته من عددهم فاعلم أنه إنما قيل تقريبًا للأذهان، وأيضًا مفهوم العدد ليس بمعتبر عند أكثر أهل الأصول، مثال ذلك أنك إذا قلت مثلاً: إن الفلانيين فيهم ثلاثون فتى، لهم من الأوصاف كيت وكيت، لا يدل ذلك على أنهم ليس فيهم غيرهم.

ولذلك إذا قال لك أحدٌ: أو لم يكن فيهم كذا وكذا؟ فتقول: نعم، وما نفيته إنما أثبت كذا وكذا، و لم أتعرض لغيرهم، فكذلك الأولياء لا تظن أنهم اليوم محصورون أو أنهم معددون ولله الحمد.

وقد وقعت لي ليلة قضية اعتبرت منها غاية الاعتبار، وعلمت أنهم لا يحصيهم إلا ربهم الغفَّار، وهي أني كنت يومًا من الأيام أطالع بعض الكتب للذين يقولون عدد الأولياء كذا وكذا، والوصف الفلاني كذا وكذا، والوصف الفلاني كذا وكذا، ويتجلَّى عليهم الحق كذا وكذا من التجلِّي.

فقلت في نفسي: سبحان الله، ومن أين لأحدٍ يقدر أن يتحكم علـى الله في حصـر أولياء أمة محمد ﷺ التي علمائها كأنبياء بني إسرائيل، ومن أين يحصر تجل من تجليه في كل لحظةٍ أكثر من كل لحظةٍ، فكان من قدر الله أني لما جنَّ عليَّ الليل خطر على قلبي أني أعد من ظهر لي في البلاد التي أنا بها وما قاربها وما سمعت به من غير ذلك، فلم أشعر بشـيءٍ إلا وإذا أنا بمن يقول: وأنا وأنا وأنا من الجهات الأربع حتى تحيَّر عقلي مـن قريـبٍ وبعيدٍ، وعلمت يقينًا أنهم لا يحصيهم إلا ربهم العليم المجيد، إلا أن منهم من ظهر ظهـور النجوم فوق السماء، ومنهم من أُخفي خفاءها تحت الأرض لحكمةٍ بالغةٍ، ومن تفضَّل الله عليه بظهور شمس الحقيقة على قلبه يعلم ما قلته بفضل ربه، ومن لا فلا، وفي ذلك المعنى قلت:

ظهرت نجوم في السماء وأخفيـت تحت الأراضي محكمـة مـا أبـديت

بل أخفيت عند الظهـور وأبـديت عند الخفـاء بحكمـةٍ مـا أخفيـت

لكنها لمـا بـدت قـد غطيـت بجمالها عـن غيرهـا بـل أعليـت

حتى إذا شمـس الحقيقـة أعليـت تجـد الليـالي كالنـهار وأجليـت

فهناك تشهد حكمة قـد أجليـت قد أبديت قد أظهرت مـا أسـجيت

يا ربنا أظهـر لنـا مـا ألفيـت من حكمةٍ في كل شـيءٍ أسـريت

بمحمـدٍ وبجاهـه إذ أسـديت منك الصلاة عليـه حـتى أجريـت

ومما قلته أيضًا في هذا المعنى، وهو المعنى الذي لا يكون معه عنا:

ولمـا بـدا وجههـا في الصـباح بـدا بالمحيـا صـباح الصـباح

ولاح لنـا جسـمها في الثبـوت فقلـت لـربي فـلاح فـلاح

وراحت تهـادي لصـوب الفـتى فقلـت لـه الـروح راح وراح

فإذا وقع المرء في هذا تبيَّن لـه أن الله تبارك وتعالى سرًّا في الدهر وأهله، لا تُـدرك حقائقه ولا تظهر دقائقه، فيبقى لا يقول إلا: يا رب كن لي كلي، وفي ذلك قلت:

أرى كل ليلٍ في الدهور له سرٌّ فسبحان وحيث بـدا يـوم بـدا أبـدًا سـر

ذي الأسـرار في الـدهرِ كلـه ويا ربنا كن لي لـك الخلـق والأمـر

واعلم أن الأكوان كلها آثار لتقدير قدرة القهَّار، فقوم انحجبوا بالأثر عمَّن له الأثر، وقوم حكموا بانعدام الأثر؛ لوجـود عين من له القدر، وقوم شهدوا الأثر ومن له الأثر، و لم يروا بينهما فصل، كما أنهما ليس بينهم وصل، فعشقوا الأثـر وعلمـوا ألا إدراك بالبصر، وفي هذا المعنى قلت:

لمـا بـدا أن حـبي خـالق أثـرا   وليس يُـدرك وهـو يـدرك البصـرا

عشـقت للأثـر الـذي لـذاتهم   وعاشـق الـذات ذاك يعشـق الأثـرا

لا سيما إذ ترى عـين علـى أثـرٍ   إن الحبيب ولـو يغيـب قـد حضـرا

ولا تقـل بينـهم فـرق بـأثرهم   إن لم يكُ وصل فليس الفصل مشـتهرا

ولا تقل وجدت عين ولا فقـدت   ولا تقـل سـفر لتقطـع السـفرا

واعلم أيضًا أن كل شهودٍ عبر عنه بأي لفظٍ كان أو حالٍ لا يكون له حدود، سواء شهود الأفعال، وسواء شهود الأوصاف، وسواء شهود الذاتٍ؛ لأن ما أُضـيف إلى الله حاشاه أن يكون محدودًا، ولو شاهد صاحبه كل ما كان موجودًا، وسواء في ذلك ما كان من الأسماء له تعلق بالمخلوقات وسواء ما لم يكن له تعلق بها، وفي هذا المعنى قلت:

شهود الذات لـيس لـه حـدود   كذاك الوصـف لـو يـكُ ذا تعلـق

ويشـبه ذا وذاك شـهود فعـل   بحـق مـع شـرع ذا تحقـق

وليس ينـال ذاك سـوى بـذكرك   يكـون بـه التحقـق والتخلـق

ودم جـولان قلـب في طـلاب   لـدرك الكـل وأثبـت ذا تشـوق

واعلم أيضًا أن العبد إذا كان بالله وأسمائه يكون كونًا حقيقيًّا بفضل الله وبآلائه، وأما إذا كان بنفسه أو باسمه أو برسمه فإنه لا يكون بنفسه ولا يكون باسمه ولا برسمه، ومن أين يكون العبد إذ لم يكن بربه، ومن أين يفقد إذا كان بربه لا بلبّه، وفي هذا المعنى قلت غفر الله لي:

لقد كنت أما كنت بـالله واسمـه   و لم أكُ أمـا كنـت بـاسمي ووسمـه

وأين أنا واسمـي إذا لم أكـن بـه   وأين يرى فقـدي إذا كنـت باسمـه

ولا يرى العبد ما هو أحسن له من تبريه من حوله وقوته، وأخذه الأمور بربه، سواء ما كان من الأكوان، وسواء ما كان من مالك الأكوان، ولا ما هو أحسن له من تركها وأخذ مالكها عنها، وفي هذا المعنى قلت:

ألا إنمـــا الأكـــوان لله ملكهـــا وإني لملـــــك الله بـــــالله آخـــــذ
وأخـــذ ذات الله بـــالله وحـــده وإني لغـــــير الله بـــــالله نابـــــذ

[مشارب الأولياء لاتُحصى]

واعلم أن مشارب أولياء الله لا تُحصى، ومعاذ الله أن يكون فيها أحـــدٌ في كتـــابٍ يستقصى، وأصنافهم كثيرة، ومذاقاتهم أثيرة، ومنهم البدلاء والنجباء والنقباء، ورجـــال الاشتياق، ورجال الأيام الستة، ورجال الأيام السبعة، ورجال الشهور، ورجال السنين، ورجال الملامية، وهي لغة ضعيفة، وهم سادات أهل طريق الله وأئمتهم، وهم الحكمـــاء الذين وضعوا الأمور مواضعها، وغير وغير مما يطول بنا جلبه، ولا يُدرى جسمه ولا قلبه.

ولا تعرف طرقهم إلا بالذوق، ولا يفيد فيها التعبير إلا لمن ذاقها، ومن ذاقها لا يحتاج إلى معبر، وذلك أن الأمور الذوقية لا يفيد فيها التعبير، ولو ضربت لها كل مثلٍ، لكنـــها ربما قربها للأذهان بعض تقريب من غير إدراك الحقيقة، وبمجرد ما تذوقه تعرفها، وتعلم أن كل ما كان يُقال لك إنما هو مثال للشيء لا نفسه، وهذا مشاهدٌ في كل شـــيءٍ مـــن الحسيَّات والعقليَّات، مثلها حرفًا بحرفٍ، بل أشد وبابها أسد، ثم قلت:

وذاكر شـــهد نَفْسَـــه انتَخـــب من عَرفَ النَّفس فقـــد عـــرف ربّ

أعني أن الذاكر إذا شهد نفسه وأنها تصريف الله وفعله فقد **(انتخب)**: أي اختار ما هو الأفضل؛ لأنه إذا عرفها لا بدَّ أن يعرف ربه؛ لقولهم: «**من عرف نفسه فقد عـــرف ربه**».

لأنه إذا عرف نفسه بالحدوث والفناء عرف ربه بالقدم والبقاء، وإن عـــرف نفســـه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ثم كذلك ومن لم يعرف نفسه التي بين جنبيه وجسمه الـــذي بين عينيه كيف له أن يعرف ربه الذي تعالى عن العقول وما يُقال بالنقول!.

ثم إنه لما كان بعض أهل الطريق إلى الله يطلب المغيبات ويريدها في الخلوات والفَلَوات والاعتزال في الحضرات، ويرفع نظره نحو السماء، أعلمت من يفعل ذلك بأن الأمر ليس كذلك، وأرشدته بقولي غفر الله لي كل قولي وعملي:

وإيَّاك أنْ تَطلب للمغيب	**في غير نفسك فعنه تَذهب**
بل اجعلن نظرًا في النفس	**معتبرًا مطهرًا للرجس**
حتى تكون كالزُّجاجة وما	**مثل الزُّجاجة ترى به السما**
هناك تَشْهَد الّسما والعَرشَا	**والأرْضين كلها والفرشا**

أعني: أني أحذرك أيها السامع من (**أن تطلب**) للشيء المغيب عنك من جميع المغيبات (**في غير نفسك، فعنه**) بسبب ذلك (**تذهب، بل**) اجعل (**نظرك**) في نفسك حال كونك (**معتبرًا**): أي متفكرًا فيها، وحال كونك (**مطهرًا**) لرجسك: أي نجسك بالمعاصي (**حتى تكون**) نفسك مثل (**الزجاجة**) في الصفاء، والذي هو مثل الزجاجة في الصفاء (**ترى به السماء**) وغيره، إن قابلته به (**هناك**): أي إذا وقعت في ذلك الحال والمقام، (**تشهد السماء**): أي العلو كله عمومًا، فتشهد السماوات والجنة والكرسي والعرش وغير ذلك مما شئت، وتشهد أيضًا (**الأرضين كلها**) وما تحتها (**والفرش**)، بل إلى أن تشهد حيث لا كون إلا الأرض الإلهية الواسعة، فتلك أرض الله التي من سكن فيها تحقق بعبادة الله تعالى وإضافة الحق إليه، قال الله تبارك تعالى: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾ [العنكبوت:56]، فهي أرض المحققين؛ لأن بها تظهر حقائق الأشياء على ما هي عليه، وأرض العظمة؛ لأن فيها ظهرت عظمة الله تعالى، وأرض السمسمة؛ لأنها مخلوقة من بقية طينة آدم التي فضلت عنه وعن النخلة، وكانت مقدار السمسمة، فمدَّها الله بقدرته حتى صار العرش وما حواه بالنسبة إليها كحلقة ملقاة في فلاةٍ، ولهذه الأرض البقاء كما قاله غير واحدٍ من العلماء، وما هي الأرض التي تقبل التبديل.

ولهذا جعلها الله مسكن عباده ومحل عبادته، والعبد ما زال عبدًا أبدًا لا يزال في هذه الأرض أبدًا، وهي أرضٌ معنوية معقولة غير محسوسةٍ، ولكل عبدٍ فيها ملك يملكه ويتصرف فيه، فلا يتعدَّى عليه غيره، وله اسمٌ يخصه، وفيها قصورٌ شاهقةٌ وأنهارٌ دافقةٌ وأشجارٌ مونقةٌ، واحذرْ من أن تقول إذن كذب، ولكن اتقِ الله ترَ عجبًا، وفي هذا المعنى قلت:

أراني مـــرآة لـــذاتي وذاتـــه ومرآة وصفي مـع جميـل صـفاته
ووصفي لا وصف إذا كان وصفيًّا وذاتي ذات إذ تكـــون بذاتــــه

واعلم أن هذا لا يكون في أغلب الأحوال إلا لمن كان كأنه أفضل الرجال، وهـو محمد ﷺ، ومن صار كأنه هو شاهد ما شاءه هو؛ لأنـه هـو روح الأرواح، ومـادة الكائنات، وأصل الوجود والفلاح، والله تعالى خلق آدم على صورة محمد، وكون الكون على هيئة رسمه، فرأس آدم بتدويره على صورة الميم الأولى، وإرسال يديه مع جنبيه على صورة الحاء، وبطنه على صورة الميم الثانية، ورجلاه في انفتاحهما على صـورة الـدال، فكمل خلق آدم على صورة اسم محمد، ثم إن الله تعالى طوى العالم العلوي والسـفلي في هيئة آدم وبنيه على رسم محمد، فابن آدم هو العالم الصغير الذي انطوى فيه العالم الكبير، كما قيل:

وتـزعم أنـك جـرم صـغير وفيـك انطـوى العـالم الأكـبر

ويُقال في تبيين ذلك: أن جسم الإنسان كالعرش، ونفسه كالكرسي، وقلبه كالبيت المعمور، واللطائف القلبية كالجنان، والقوى الروحانية كالملائكة، والعينـان والأذنـان والمنخران والسبيلان والثديان والسرة والفم كالبروج الاثني عشـر، والقـوى الباصـرة والسامعة والذائقة والشامة واللامسة والناطقة والعاقلة كالكواكب السبعة السيَّارة، وكما أن رئاسة الكواكب بالشمس والقمر، وأحدهما يُستمد من الآخر، فكذلك رئاسة القوى بالعقل والنطق، وهو: أي النطق مستمدٌ من العقل.

وكما أن في العالم الكبير ستين وثلاثمائة يوم، فكذا في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، وكما أن للقمر ثمانية وعشرين منـزلاً يدور فيها في كل شهرٍ، فكـذا في الفـم ثمانيـة وعشرون مخرجًا للحروف، وكما أن القمر يظهر في خمس عشرة ليلة ويختفي في الباقي، كذلك التنوين والنون الساكنة يخفيان عند ملاقاتهما خمسة عشر حرفًا، وكما أن في العالم الكبير أرضًا وجبالاً ومعادنًا وبحارًا وأنهارًا وجداول وسواقي، فجسد الإنسان كالأرض، وعظامه كالجبال التي هي أوتاد الأرض، ومخه كالمعادن، وجوفـه كالبحـار، وأمعـاؤه كالأنهار، وعروقه كالجداول والسواقي، وشحمه كالطين، وشعره كالنبات، ومنبت الشعر كالتربة الطينية، وأنسه كالعمران، وظهره كالمفاوز، ووحشـته كـالخراب، وتنفسـه كالرياح، وكلامه كالرعد، وأصواته كالصواعق، وبكاؤه كالمطر، وسروره كضوء النهار،

وحزنه كظلمة الليل، ونومه كالموت، ويقظته كالحياة، وولادته كبدء سفره، وأيام صباه كالربيع، وشبابه كالصيف، وكهولته كالخريف، وشيخوخته كالشتاء، وموته كانقضـاء مدة سفره، والسنون من عمره كالبلدان، والشهور كالمنازل، والأسابيع كالفراسخ، وأيامه كالأميال، وأنفاسه كالخطى، فكلما تنفَّس نفسًا كأنه يخطو خطوة إلى أجله، وله في كل يومٍ اثني عشر ألف نفس، وفي كل ليلةٍ كذلك، فيوم القيامة ينظر في كل نفسٍ، أخرجه في غفلة عن ذكر الله، فيطول حسرة من مُضي نفس من أنفاسه في الغفلة.

ثم إن الأرض سبع طباق: أرض سوداء، وغبراء، وحمراء، وصفراء، وبيضاء، وزرقاء، وخضراء، فنظائرها من الإنسان في جسمه: الجلد، والشحم، واللحم، والعروق، والعصب، والقصب، والعظام، وهذه المرة السوداء بمنـزلة الأرض ليبسها وبردها، وهذه المرة الصفراء بمنـزلة النار ليبسها وحرارتها، وهذا الدم بمنـزلة الهواء لحرارته ورطوبته، وهذا البلغم بمنـزلة الماء لبرودته ولزوجته.

وكما أن المياه مختلفة فمنها الحلو والمالح والمنتن، ولولا ملوحة مائها لفسدت، وهـذا الريق عذب، ولولا ذلك ما استعذب طعام ولا شراب، وهذا الماء الذي في صماخ الأذنين مر؛ لأنهما عضوان مفتوحان لا انطباق لهما، حتى إن نتن الماء يسد كل شيءٍ عن أذنيه، ولو أن دودة دخلتهما لماتت؛ لمرارة ذلك الماء ونتنه، ولولا ذلك لوصلت الديدان إلى دماغه فأفسدته.

ثم فيه أخلاق جميع الحيوانات، فهو كالملك من جهة المعرفة والصفاء، وكالشيطان من جهة المكر والكدورة، وكالأسد في الجرأة والشجاعة، وكالبهيمة في الجهل، وكالنمر في الكبر، وكالفهد والأسد في الغضب، وكالذئب في الإفساد والإغارة، وكالحمار في الصبر، وكذا كالحمار والعصفور في الشهوة، وكالثعلب في الحيلة، وكالفأرة والنملة في الحرص والجمع، وكالكلب في البخل، وكذا في الوفاء، وكالخنـزير في الشره، وكالحية في الحقد، وكالجمل في الحلم، وكذا في الحقد، وكالديك في السخاوة، وكالبوم في الصناعة، وكالهرة في التواضع والتملق، وكالغراب في البكور، وكالبازي والسلحفاة في الهمة، إلى غير ذلك، ويزيد على الجميع بالنظر، ووجود التمييز والاستدلال بالشاهد على الغائب، وأنواع الحرف والصناعات، فهذه كلها آيات لله تعالى في أنفسنا، كما قال تعالى: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات:21]، وقوله: ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾

[المؤمنون:14] وانظر روح البيان عند قوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقوَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾ [فصلت:53].

وقد أتى شيخنا ﷺ وأرضاه في المطية بما لا مزيد عليه من هذا التشبيه، وقد زاد كثيرًا على هذا الذي أتيت به فجزاه الله برضاه، وقد أتى غيره بأشياء ولكن ليست كما جاء به، فلينظرها من أراد الاستيفاء، فإذا تمهَّد لديك هذا وعلمت ماً انطويت عليه من شبه الكون علويه وسفليه، فاعلم أنك إن أدمت الذكر والتفكر في نفسك شاهدت هذا العالم كله من نفسك، لكن ذلك لا يكون حتى يمتزج الذكر بلحمك ودمك، ويكون به سير نفسك، كما قلت غفر الله لي:

وذاك لا يكون حتى يمتزج باللحم والدم وفي النفس نهج

ويكمل الشهود عند الحركات واللحظات كلها والسكنات

أعني أن ذلك الذي هو شهود الأشياء في نفسك لا يكون (**حتى يمتزج**): أي يختلط الذكر باللحم منك والدم، ويكون (**في النفس نهجًا**): أي طريقًا، والنهج بالفتح فسكون: الطريق الواضح البيِّن، وهو النهج محركة أيضًا حتى (**يكمل الشهود**) لله (**عند الحركات**) كلها (**واللحظات**): أي لحظات العين، وعند (**السكنات**) (**كلها**) أيضًا.

والشهود معناه الحضور، وعند القوم دوام المراقبة والحضور مع الله تعالى، لا يغفل عن الله طرفة عين، ومن وصل إلى هذا المقام وجد اللذة حتى في الآلام والأسقام والشهود، والمشهد بمعنى المشاهدة التي تحصل لأهل الله تعالى، بسبب تجلِّيه على قلوبهم، فيشهدون ذاته أو صفاته أو أفعاله على حسب استعداد التجلِّي عليهم، وهذا الشهود إنما هو في القلب فقط دون البصر، فرؤية الباري تعالى بالبصر ممتنعة، وبالروح والقلب جائزة.

ولذلك قال سيدنا عمر ﷺ: ((**رأى قلبي ربي**)).

وقال الإمام عليٌّ ﷺ: ((**لا أعبد ربًّا لم أره**)): أي بروحي.

وما يحصل للعين الجسماني من الرؤية في الجنة بعد الصفاء يحصل لبعض أهل الصفاء في الدنيا في اليقظة بالروح؛ إذ الدنيا والآخرة للروح الصافية سيان، والله الواهب.

قال في المطالب الوفيَّة: والمشهور عند علماء الظاهر والباطن كالقشيري والغزالي وغيرهما أن الشهود والرؤيا إنما هما في القلب بدون المقابلة في هذه الدار الفانية؛ لأن البصر

فانٍ والحق تعالى باق، ولا يرى الباقي بالفاني، فإذا كان يوم القيامة ركبوا تركيبًا باقيًــا، فكانت أبصارهم باقيةً، فصح أن يرى بالباقي، ونحو هذا منقولٌ عن الإمام مالك،وهــو مستحسن.

المجيزون قالوا: إنما قال تعالى: ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام:103]، ولم يقل: لا تراه.

وفي قولي: ويكمل الشهود حسن الانتهاء، وهو الإشارة بكلمةٍ تدل عليه، ولما كانت الصلاة على النبي ﷺ مطلوبة أولاً وآخرًا قلت:

وصلِّ وسلم مدى التخاطــب   على النبي حمدًا كفــاء الواجــب

أعني أني أطلب من الله أن يصلي على النبي محمــد ﷺ (**مــدى**): أي مــدة غايــة (**التخاطب**) بالكلام بين الناس، وإني أحمد الله (**حمدًا كفاء**): أي مكافئ (**الواجب**) علينا من حمده، وفيه رد العجز على الصدر، وهو من أنواع البديع المستحسن.

وليكن هذا آخر الكلام على هذا المجموع.

ووافق الفراغ منه دخول وقت عصر يوم الجمعة، سابع شعبان عام سبعة وثلاثمائــة وألف، أرانا الله خيره وخير ما بعده[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا

(1) قلت: أبو الحسن أحمد فريد المزيدي: وتم الفراغ من تحقيقه في التاسع عشر من شهر شوال سنة 1426 هــ، بدار الحقيقة المحمدية للبحث العلمي وتحقيق تراث السادة الصوفية.